نِحْلَةُ الغَالبِ

سـراب لا شـراب

دكتـــور

محمود محمد حسين علي

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين القاهرة

جامعة الأزهر

مقـــدمـــة

الحمد لله وكفى ، وسلام على عـباده الـذين اصطفى، وبعد .فقد حملـت إليـنا القرون الأخيرة ، ثم القـرن العشرين الميلادي على وجه الخـصوص مجمـوعة من الأفكار والمـذاهب والمعـتقدات ، إما عن طـريق التسرب التلقائي الذي ينشأ من تقليد المغلوب للغالب ، وهو ما يـسميه العلامة ابن خلدون " نحلة الغالـب" وهـي عبارة صاغها ابن خلـدون _ رحمـه الله_ فـي كتابه الماتـع (المقدمـة)، وأودعهـا ملاحظته الثاقبة المشهورة ، والتي مفادهـا أن المغلـوب مولـع أبـدا بالاقتداء بالغالب في شعاره ، وزيه ، ونحلته، وسائر أحواله ، وعوائده، و"الـسبب فـي ذلك أن النفس أبدا تـعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إلـيه، إمـا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به مـن أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنمـا هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بـذلك واتـصل لها حصل اعتقادا، فانـتحلت جمـيع مـذاهب الغالـب وتشبهت به".

نحلـة الغالـب مـيل مـن نفس المغلوب وانهزام ، أو استخذاء كما

يقول المفكر الإسلامي مالك بن نبـي، حتى ولو لم تكن للغالب خطة لتنحـيل المغلـوب ، فكيف والغالب اليوم له خطة واستراتيجية ، وتكتيك للغـزو الثقافـي ، والاقتـصادي ، والسياسي ، بل والعسكري لبلادنا ، وهذا هو الطريق الثاني الذي وفدت بـه هـذه التـيارات الفكـرية إلى مجتمعاتـنا ،وأعني به طريق الغزو الفكري المتعمد الذي يبثه الغالب في فكـر المغلـوب ليضمن تبعيته له، وعدم خروجه عن طاعته .

"والأمـر الـذي لا شـك فيه أن الإسـلام يجتاز اليوم أزمة قاسية ، ويمـرّ بفترة عصيبة ، إذ تحيط به تيارات مادية إلحادية عديدة ، تحاول أن تـنال مـنه ، أو تخفي ضوءه . وهذه التحديات التي يواجهها الإسلام أعـنف مـن أيـة تحديات واجهها الإسلام في العصور الماضية . ففي عـصرنا الحاضر _عصر الحضارة الماديـة الـصناعية _طغت موجات الإلحاد بعنفها تهز الأسس الروحية التي تقوم عليها المجتمعات في شتى أنحـاء العالم ، كما اقترن الانحلال الروحـي بموجة انحلال خلقي يجند

لخدمته العلم ،والفن، وكل الوسائل المستحدثة "[١]

ونحن في مجتمعاتنا الإسلامية لا نستطيع أن ندفن رؤوسنا في الرمال ، ونغض الطرف عن هذه التيارات المادية والإلحادية التي تحيط بنا من كل جانب ،فإنه إذا كانت هذه التيارات قد قامت أساسا في بلاد الغرب إلا أن أصحابها يحاولون أن يصبغوا بصبغتها كل المجتمعات الأخرى ترغيبا أو ترهيبا ، لهذا فنحن مضطرون _ أردنا أم لم نرد _ أن نواجه ونجابه كل التيارات الفكرية التي غزت مجتمعاتنا في غفلة منا .

"وقد استهوت هذه المذاهب الفكرية بعض المصفقين لما يسمّى بالمدنية الغربية ، بل والمفتونين بها ، فحاولوا أن يتسللوا بها تهريبا ، والبضاعة التي تتسلل تهريبا من النوافذ هي التي تضر وتفسد ، ولا عاصم من ذلك سوى إدخالها من الأبواب المفتحة الشرعية تحت رقابة الدراسة العلمية ، والفكر الذي لا تستعبده أي أسبقيات نفعية."[٢]

" فالبصيرة الواعية هي التي تميز بين السراب الوهمي، والشراب الحقيقي ، ولنضرب على ذلك مثالا :

فالفلسفة اليونانية لمّا هبّت على أرض الجزيرة العربية بشكل عفوي ، وتسللت دون قصد من النوافذ والشقوق فعلت في الفكر الإسلامي فعل الجرثومة الوافدة في الجسم الصحيح،فانجرف الفكر الإسلامي في عهد من الاضطراب بفعل تلك الرياح الوافدة.

فلما ترجمت الفلسفة اليونانية بعد ذلك إلى اللغة العربية ، وأقبل العلماء يدرسونها بتبصر ، وفكر ثاقب متحرر ، تحوّلت تلك الدراسة إلى مصل واق حصّنهم ضدّ أوضارها ، واتخذوا منها لقاحا أكسبهم مناعة ضد وبائها ، فشهد التاريخ عندئذ تراجع سلطانها عن العقول ، والنفوس ، وانهارت تلك

[١] – الإسلام والفكر الغربي : د/ محمود حمدي زقزوق طبعة دار الطباعة المحمدية الأولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م صـ ٦

[٢] – نقض أوهام المادية الجدلية : د/ محمد سعيد رمضان البوطي طبعة دار الفكر الثانية ١٩٧٨م صـ ١٠ بتصرف يسير .

البدع بانهيار دعائمها ، والقضاء على جراثيمها ،وجاء الغزالي وأمثاله فعرّوها من أقنعتها الزائفة ، وبرهنوا بمقاييس المنهج العلمي على تفاهتها ، وبطلانها ، ولولا التعرف عليها بفكر موضوعي هادئ من قبل لاتهمت العقلية الإسلامية، ولمسخت حقائق الإسلام في غمار الانبهار بمصطلحاتها الضخمة ، وألفاظها الغريبة"[١]

يقول الإمام الغزالي عن علوم الفلاسفة _ وما أحسن ما يقول : " أعلم: أن علومهم – بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه – ستة أقسام: رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية.

١ – أما الرياضية: فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجادلته بعد فهمها ومعرفتها . وقد تولدت منها آفتان:

إحداهما الأولى: إن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك

[١] – المرجع السابق : نفس الصفحة

اعتقاده في الفلاسفة ، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم. ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تناولته الألسن فيكفر بالتقليد المحض ويقول: لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين. وكم رأيت ممن يضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه! وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق. وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها. فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني ؛ لا يعرف ذلك إلا من جرّبه وخاض فيه. فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحَدَ بالتقليد ، لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، والشهوة الباطلة ، وحب التكايس ، على أن

يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها.

فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ، فأنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم ، سرى إليه شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى.

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم: فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع. فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فيزداد للفلسفة حبّا وللإسلام بغضا. ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية. وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى وإلى الصلاة))[1].

وليس في هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلهما على وجه مخصوص. [2]

وهذا رأي متوازن يدل على سلامة التفكير ، وسعة الأفق ، والانصياع للحق الذي يثبته المنطق الصافي السليم، ويزيد في قيمة ما يقول هذا الرجل في نقد الفلسفة ، فهو يعترف بصحة بعض علومهم ، كما يذكر ما تولّد عنها من الآفات ربما من غير قصد يرى تأثيرها في المجتمع الإسلامي .

وكأن الإمام الغزالي يصوّر بقوله : "فيكفر بالتقليد المحض " كثيرا من ضعاف العقول الذين خضعوا لبراعة الغرب في العلوم الطبيعية والاختراعات ، ورأوا ما هم عليه من إلحاد وزندقة وتفسخ خلقي أنه الطريق الأقوم وقلدوهم فيه ، فهو يقول : "وكم رأيت من يضل عن

---

[1] – روي هذا الحديث بأسانيد وطرق مختلفة. يوجد في البخاري وأحمد والنسائي وأبن ماجة ومالك.

[2] _المنقذ من الضلال : الإمام الغزالي صـــــ٥

الحق بهذا القدر ، ولا مستند له سواه !" .

وفي عصرنا الذي نعيش فيه صارت بعض المذاهب الفكرية الوافدة أمرا واقعا " وللواقع حجيته عند العوام ، كما أن للواقع ثقله عندهم ، فهذه المذاهب تصبح في حس الناس جديرة بالاتباع لا لجدارتها الذاتية ، ولا لأنها في ذاتها صحيحة ، ولكن لأنها فقط موجودة بالفعل "[1]

وأصدق مثال على ما نقول هو التيار البراجماتي الذي نتعرض له في هذا البحث ، وقد ظهر أولا كفلسفة ، ثم تم انتهاجه كأسلوب حياة في بلاد لا زالت تأخذ بهذا النهج إلى اليوم عرفت بالولايات المتحدة الأمريكية (أمريكا)،وأخذت به أيضا بعض الدول الأخرى كالمملكة المتحدة (إنجلترا) ، وتحاول كل منهما وخاصة أولاهما أن تفرض هذا المنهج على العالم كله تحت شعار النظام العالمي الجديد ، أو العولمة ، أو إن شئت فقل أمركة العالم

---

[1] – مذاهب فكرية معاصرة : الأستاذ/ محمد قطب طبعة دار الشروق ١٩٩٣ صـه

هذا البحث محاولة لبيان الأساس الفلسفي الذي ينبني عليه هذا النهج ، وتقويمه تقويما منطقيا، مع بيان الآثار المترتبة على تسربه إلى عالمنا الإسلامي ، معتمدين في ذلك منهجا علميا موضوعيا بعيدا عن التجريح ،يقينا منا بأن هذا المنهج هو الأقرب إلى بلوغ الحق ، ومعرفة الحقيقة ،فضلا عن أنه منهج الإسلام((و إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين))[2]

هذا الموضوع ليس ترفا فكريا ، بل إنه قد يرتفع إلى مرتبة الحاجة والضرورة ، فالتيار الفكري الذي نعرض له سار في الغرب وسارع ،ثم قدّم إلينا كبديل لعقيدتنا ،ورؤيتنا الإسلامية،" والإنسان بما هو إنسان لا يستطيع ، ولم يعد يستطيع في عالم اليوم أن ينعزل عما يموج حوله من اتجاهات فكرية في شتى أنحاء العالم ، إذا أصبحت هذه الاتجاهات تؤثر بطريقة أو بأخرى إن سلبا أو إيجابا في كل مكان تقريبا بفضل ما لدى البشرية اليوم من وسائل حديثة متطورة لنقل الأخبار والأفكار "[3]

---

[2] – سورة سبأ : من الآية ٢٤

[3] _ دراسات في الفلسفة الحديثة : د/ محمود حمدي زقزوق طبعة دار الفكر العربي الثالثة ١٩٩٣م صـــ٤

" وإنها معركة ليست أقل من المعارك الحربية التي خاضها المسلمون ولا يزالون يخوضونها في بعض الأماكن ، إن الأخيرة قد استهدفت بالدرجة الأولى الأرض والتراب ، أما هذه _ وهنا مكمن خطورتها _ فإنها تستهدف القلب والفكر والوجدان ، وهي لعمري أعز على الله ، وأعز علينا من الأرض والتراب " [١].

في هذا البحث عن البراجماتية أتحدث عن النقاط الآتية بإيجاز شديد :

أولا :البيئة التي نشأ فيها هذا التيار وأمثاله.

ثانيا : الجذور

ثالثا : ما البراجماتية ؟

رابعا : أئمة البراجماتية

خامسا:نقد البراجماتية ويشتمل على:

١_ نقد فكرة نسبية الحقيقة ، وبيان خطورتها .

٢_ البراجماتية ملهمة النظام الرأسمالي وهو ملئ بالعيوب .

٣_ البراجماتية والدين .

٤_ نقد الامتداد غير المشروع لفكرة المنفعة .

٥_ البراجماتية والعلم .

٦_ البراجماتية والفردية .

٧_البراجماتية فلسفة وقوعية لا واقعية.

وأرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت إلى أن أضع في هذه الدراسة قدرا مناسبا من المعلومات يلقي ضوءا معقولا على هذا المذهب.

<u>أولا : البيئة التي نشأت فيها البراجماتية</u>

القرآن يقول: ((قد علم كل أناس مشربهم))[٢] ، ومشرب المسلمين هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، أما مناهج الفكر الغربي وفلسفته فقد كان لها مشربها البعيد عن وحي الله، ابتداء من اعتمادها على الفكر اليوناني وما فيه من لوثة الوثنية ، وانتهاء بتأثرها بالدين المحرف الذي انتج بدوره واقعا منحرفا .

هذا التأثر ليس بالضرورة أن يكون انسياقا لهذا الدين المحرف ، بل إنه وفي كثير من الأحيان كان

---

[١] _ الاتجاهات الفكرية المعاصرة : المستشار/علي جريشة طبعة دار الوفاء الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م صـ ٧

[٢] – سورة البقرة : جزء من الآية ٦٠

رسول الجدال والمنازعات

ردة فعل لهذا الدين الذي روجت له الكنيسة، والذي لا علاقة له مطلقا بما جاء به عيسى _ عليه السلام _ اللهم إلا في اسمه كما يدعون ، وإن كانوا يريدون الحقيقة فإن الأولى بهذه المعتقدات أن تسمى بنصرانية بولس ، أو نصرانية الباباوات إن أردنا منشأها ، أو أهم من ساهم في تطويرها.

فأوروبا ومثلها أمريكا لم تعرف قط الدين الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام ، وما عرفت سوى هذه الهرطقات التي ابتدعها بولس وكرستها وروجت لها المجامع الكنيسة على مر العصور ، بل وأضافت إليها الشيء الكثير ،يقول الفيلسوف الفرنسي " رينان " : " إنه ينبغي لفهم تعاليم المسيح الحقيقي كما كان يفهمه أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام ، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح بل حمله على محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين ، وتعاليم العهد القديم ، وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم ، أو الدينية ، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره ، فأدخل ميوله على هذا الدين المسيحي فأفسده ، ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس ، وأما تعليم المسيح الأصلي الحقيقي فخسر صفته الإلهية الكمالية " [١]

وصدق رينان في هذا القول ، فالتصورات البولسية ، ومن بعدها الكنسية لم تكن في يوم من الأيام تمثل المسيحية الحقة ، فالملابسات التي صاحبت نشأة النصرانية في ظل الدولة الرومانية، ثم التي صاحبت دخول الدولة الرومانية في النصرانية قد جنت على النصرانية الحقة جناية كبرى ، وحرفتها تحريفا شديدا ، بدءا من الاعتقاد في ذات الله ، مرورا بانحراف الخطيئة المتوارثة ، وسلطة البابا ، وصكوك

---

[١] _ نقلا عن محاضرات في النصرانية : الشيخ الإمام / محمد أبو زهرة صـ ٢١٥ طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الرياض ١٤٠٤هـ الطبعة الرابعة

الغفران ، وكراسي الاعتراف ، ومحاكم التفتيش ...إلخ هذه الانحرافات [١]

يقول الأستاذ الإمام / محمد عبده عن أعمال محاكم التفتيش : " قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ، ففي مدة ١٨ سنة من سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٤٩٩ حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء ، فأحرقوا ، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت ، ثم أحرقت كل توراة بالعربية .

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة (المقدسة) ؟ وسيلة واحدة هي أن يحبس المتهم، وتجرى عليه أنواع التعذيب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه ، وعند ذلك يصدر الحكم ، ويعقبه التنفيذ.....

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوروبا ما خيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه، وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية إليه، وكان جميع الناس يقولون عن ذلك العهد : يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيا ويموت على فراشه." [٢]

خلاصة الأمر أن الكنيسة لم تكتف بالتحريف النظري للعقيدة الحقة وتشويهها ، بل أضافت إلى ذلك ممارسات خاطئة تمثلت في الطغيان الروحي ، والفكري والمالي ، والسياسي ، والعلمي ، والفساد الخلقي ، والمساندة للظلم في جميع أنواعه وألوانه ، والتخذيل للمصلحين .

ولذلك حينما قدر للفكر الغربي أن يشب عن الطوق اتخذ موقفا عدائيا لا من الأفكار والتصورات الكنسية التي كانت سائدة يومذاك ، بل من الأفكار والتصورات الدينية على

[١] _ للاستزادة ينظر : الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام : د/ توفيق الطويل طبعة دار الفكر العربي صـ ٦٩ وما بعدها ، وأيضا الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية : الإمام / محمد عبده طبعة صبيح صـ ٢٣وما بعدها ،

[٢] – الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية : الأستاذ الإمام / محمد عبده صـ ٣٥، ٣٦ بإيجاز مرجع سابق .

الإطلاق ، بل تجاوز العداء الأفكار والتصورات الدينية إلى منهج التفكير الديني بجملته .

واتجه الفكر الغربي إلى ابتداع مناهج ومذاهب للتفكير ، الغرض الأساسي منها هو معارضة منهج الفكر الديني ، والتخلص من سلطان الكنيسة ، بالتخلص من إله الكنيسة ! ومن كل ما يتعلق به من أفكار ، ومن مناهج للتفكير أيضا ! وكمن العداء للدين وللمنهج الديني لا في الموضوعات والفلسفات والمذاهب التي أنشأها الفكر الغربي ، بل في صميم هذا الفكر ، وفي صميم المناهج التي يتخذها للمعرفة .

وإذا كان هذا هو مشرب الغربيين ، ومصدر معرفتهم فهل نعجب من النهاية التي وصلوا إليها من انسلاخهم عن الدين ، ونفورهم منه ، وثورتهم على رجاله ، وإبعادهم له عن كل مجالات الحياة ؟

ثانيا :الجذور الفكرية للبراجماتية

يعد الفكر الفلسفي الأمريكي نسيجاً من خامات متعددة مستوردة من مختلف أصقاع العالم ، حمل بذورها أناس رحلوا عن بلدانهم باحثين عن الثروة والحرية ، ويمثل هؤلاء الناس شريحة منتقاة من المتعلمين والمغامرين والرأسماليين . [١]

وحمل هؤلاء معهم من ضمن ما حملوا أفكاراً تبشيرية وتأملات دينية ونبوءات توراتية وفنوناً جميلة وفلسفات متنوعة . وكل هذه وغيرها قد لعبت أدوارها في تشكيل الفكر الأمريكي.[٢]

والفلسفة البراجماتية فلسفة أمريكية في الأساس ، لأنها الفلسفة التي تتسق مع أسلوب الحياة الأمريكي نفسه ، أي أنها جاءت لتعبر عما هو واقع بالفعل ، لكنها استندت في ذلك إلى مذهبين قديمين من مذاهب الفلسفة اليونانية وهما السوفسطائية ، والأبيقورية .

فعندما أراد [وليم جيمس] أهم فلاسفة البراجماتية عرض مذهبه – وإن كان هو نفسه رفض اعتباره مذهبًا – في كتاب البراجماتية؛ فقد قدم له بهذا العنوان الجانبي: [اسم جديد لبعض الأساليب القديمة في التفكير]، وما نراه هو أن هذا المذهب – كما سنثبت لاحقًا

[١] – الولايات المتحدة الأمريكية أرضا وشعبا ودولة : محمد عبد المنعم الشرقاوي _ مكتبة النهضة المصرية طبعة ١٩٥٦م صـ ٩٢

[٢] – تاريخ الفلسفة الأمريكية : هربرت شنايدر ترجمة / محمد فتحي الشنيطي طبعة القاهرة ١٩٦٤ م صـ ٥

ـــ هـو عبارة عن تطوير جديد لمـزاوجة فلـسفية بـين المذهبين الـسابق ذكـرهما وهمـا: السوفـسطائية، والأبـيقورية ، بل يمكـن أن تسمى هذه البراجماتية " سوفـسطائية العصر الحديث " (١). ولـذا لزم الإشارة إلى أسس هذين المذهبـين أولاً قـبل تـناول مذهب البراجماتية الذي نحن بصدده.

السوفسطائية:

لفـظ السوفـسطائية يـرجع في الأصـل إلـى الكلمـة اليونانـية (سوفيسطوس)والتي تعني : المعلم فـي أي لـون مـن ألـوان العلوم والـصناعة ، وبخاصة علم البلاغة والبيان . ولما وجدت جماعة مثقفة فـي المجـتمع اليونانـي امـتازت بالبراعة في الخطابة وتلقين الشباب الأثيني طـرائق الجـدال والحجاج أطلق عليها (سوفيست) ، وتميزهم بهـذا اللقب لم يكن مدعاة للانتقاص أو الحـط بل مدعاة للتفوق في العلم والبلاغة .(٢)

لكـن لمـا انحرفوا عن الجادة واتخذوا العلم والبيان حرفة ووسيلة ارتـزاق ، بـل قـصدوا إلى تعليم الشباب " كيف يخدمون الفكرة كائنة مـا كانـت ، وعلـى أي وجه كان بالحـق أو بالـباطل ... و كـيف يكـسبون خصومهم بكل الوسائل ، باللعـب بالألفـاظ ، بالاسـتعارات والكـنايات الجذابة ، بخداع المنطق وتمـويه الحقيقة .... من أجل ذلك سـمي اللعب بالألفاظ والتهريج في الحجـج (سفـسطة)اشـتقاقا مـن السوفسطائيين " (٣)

قـد يكون المحور الأساسي الذي يقـوم علـيه تـيار الفلـسفة السوفـسطائية هـو تلـك المقولة للفيلـسوف اليونانـي القـديم [بـروتاغوراس ٤٨٠ـــ ٤١٠ قـبل المـيلاد]:"الإنسان مقياس الأشياء جمـيعا؛فهو مقياس وجود ما يوجد منها،ومقياس لا وجود ما لا يوجد"(٤)،

١- أضـواء على الفلسفة اليونانية : د/ أحمـد الجمل طبعة دار الطباعة المحمدية الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م صـــ ٢٣٧

٢- المرجع السابق : صـــ ٢٢٣

٣- قصة الفلسفة اليونانية : أحمد أمين ، د/ زكـي نجـيب محمـود الطبعة السابعة لجـنة التأليـف والترجمة والنشر ١٩٧٠ صـــ ٦٥

٤- تـاريخ الفلسفة اليونانية : د/ يوسف كرم طبعة دار القلم _بيروت بدون تاريخ صـــ ٤٦

فالعـبارة تلخـص نظـرية السوفـسطائيين فـي المعـرفة؛ إذ يعتقدون أن الإنسان هو وحده معيار المعـرفة فـإن قـال عن شيء إنه موجـود فهو موجود، وإن قال إنه غيـر موجـود فهـو غير موجود؛ فالحواس أو الإدراك الحسي تحديدًا هـو المعـيار الذي يقيس به الفرد وجود الأشياء جميعًا، أو كما شرحها أفلاطـون فقـال إن معـناها : "إن الأشـياء هـي بالنسبة إليّ على ما تبدو لي ، وهي بالنسبة لك على ما تـبدو لـك ، وأنـت إنـسان وأنـا إنسان"(١) .

" وعلـى ذلـك تـبطل الحقـيقة المطلقـة لتحل محلها حقائق متعددة بـتعدد الأشـخاص ، وتعدد حالات الـشخص الـواحد .... والنتـيجة المنطقية أن ما يصدق على المعرفة يصدق أيضا على العمل، وأن الفرد مقـياس الـنفع والـضر ، والخير والشر ، والعدل والظلم " (٢).

"وتـرتب علـى هـذا أن اعتقد السوفـسطائيون في تعدد الحقائق ، فما يراه كل إنسان هو حق بالنسبة لـه ، وصادق عنده مهما ناقض ما يـراه الآخر ، أو خالفه ضرورة أنـه لا يوجد شيء يسمى حقا في الواقع ونفس الأمر " (٣)

وتـرتب علـى هذا أيضا "أن كل القـيم الأخلاقـية والقوانـين أمور نـسبية صـالحة فقط للتطبيق على المجتمع البشري الذي قام بإقرارها ، ويرتبط بقاؤها ببقاء ذلك المجتمع الـذي يعتبر أنها صحيحة ، فليست هناك ديانة مطلقة ، أو أخلاق مطلقة ، أو عدالـة مطلقـة ، فكلها أمور نـسبية ، كما أن القوانين مثل اللغة والعقائـد الدينـية والنظم الأخلاقية أمور نسبية ".(٤)

ثـم تمضي هذه النسبية المعرفية على يد [غورغياس ٤٨٠ ـــ ٣٧٥ ق.م] إلى عدم إمكانية المعرفة تمامًا وتتلخص أقواله في قضايا ثلاث :

الأولى : لا يوجد شيء .

الثانـية : إذا كـان هناك شيء فالإنسان قاصر عن إدراكه .

١- المرجع السابق :صـــ ٤٧

٢- المرجع السابق: نفس الصفحة .

٣- الفلـسفة اليونانية مقدمات ومذاهب : د/ محمـد بيـصار طـبعة دار الكـتاب اللبناني _بيروت ١٩٧٣ صـــ ٧٥

٤ _ ملامـح الفكر الفلسفي عند اليونان : د/ حربي عباس عطيتو طبعة دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧ صـــ ٢٣٧

الثالثة : إذا فرضنا أن إنسانا أدركه فلن يستطيع أن يبلغه لغيره من الناس "(١)

ويذهب (غورغياس) إلى أن " الرجل القوي يعرف كيف تساس المدن ومن حقه أن يتولى حكمها ، وليست القوة في كبح جماح النفس والزهد في رغباتها ، فهذا الزهد أو على الأقل هذا الاعتداد مظهر من مظاهر الضعف وخور العزيمة ، وهو بالعامة أليق ، ويجب على الرجل القوي أن يكون شديد النزوع ، وأن يشبع رغباته إلى التمام ، أما ذلك الذي لا يشتهي شيئا ، وليست له رغبات فهو كالحجر ، فهذه هي طبيعة الحياة نزوع ورغبة وشهوة وقوة تدفع إلى تحقيقها ليشعر المرء باللذة ويبلغ السعادة "(٢)

أما موقفهم من الدين فقد عبر عنه [بروتاغوراس] بقوله: "لا أستطيع أن أعلم إذا كانت الآلهة موجودة أم غير موجودة ولا هيئتها ما هي؛ لأن أمورًا كثيرة تحول بيني وبين هذه المعرفة، منها غموض الموضوع، وقصر الحياة "(٣).

الأبيقورية:

كان لأبيقور [٣٤١ ـ ٢٧٠ ق.م] تأثير كبير على الجماهير، كان أبوه معلما ، وكانت أمه ساحرة تعزم في المنازل للتطبيب والتطهير ، وبلغ تأثيره على الجماهير أن أهل إحدى المدن قد جمعوا له مبلغًا كبيرًا من المال، اشتروا به بيتًا وحديقة في أثينا؛ ليتخذ من هذه الدار مدرسة ينشر من خلالها فكره في عاصمة الفلسفة في ذاك الحين.

وكان [أبيقور] يدعو الناس إلى حياة اللذة السهلة وهو يقول: "ألا لا يبطئن الشاب في التفلسف، ولا يكلّن الشيخ من التفلسف؛ فإن كل سن ملائمة للعناية بالنفس ، وأن القول بأن ساعة التفلسف لم تحن بعد ، أو أنها فاتت ، معناه أن ساعة طلب السعادة لم تحن بعد ، أو أنها فاتت " (٤).

١- تاريخ الفلسفة اليونانية : صـــ ٤٨ مرجع سابق

٢-فجر الفلسفة اليونانية : أحمد فؤاد الأهواني طبعة عيسى البابي الحلبي صـــ ٢٨٧، ٢٨٨

٣ـ المرجع السابق : صـــ ٤٧ بتصرف .

٤- المرجع السابق : صـــ ٢١٥

وقد بدأ [أبيقور] بتقرير المبدأ القائل: إن هدف الفلسفة هو أن يحرر الناس من الخوف، وخاصة من خوف الآلهة وهو يكره الدين؛ لأن الدين في رأيه يقوم على الجهل ويزيده، ويظلم الحياة بما يبثه في النفس من رهبة جواسيس السماء على حد تعبيره. وعندما رأى نفور اليونانيين من رأيه في كون الآلهة ليست هي التي أنشأت العالم، وليست هي التي ترشده وتسيره قال لهم: 'فإن كان هذا لا يرضيكم فلتعزوا أنفسكم؛ بأن تفكروا في أن الآلهة بعيدة عنكم إلى درجة لا تستطيع معها أن تضركم أو تنفعكم'.

والاحساسات برأي [أبيقور] كلها صادقة على السواء، فهو يرى : " إن المعرفة أربعة أنواع: الانفعال ، والإحساس ، والمعنى الكلي ، والحدس الفكري . فالانفعال هو الشعور باللذة والألم ، والإحساس الإدراك الظاهري ، وكلاهما يظهرنا على علته الفاعلية أي التي تحدثه فينا ، فإن الاحساسات صادقة على السواء ، أي أنها صور مطابقة للأشياء .....فخطأ الحواس ليس يقع في الإدراك بل في الحكم الذي يضيفه العقل إلى الإدراك ، فنحن لا

نخطئ إن قلنا عن برج بعيد أنا نراه مستديرا ، ولكنا نخطئ إن اعتقدنا إنه مستدير بالفعل ، وإننا سنراه كذلك إذا اقتربنا منه . وأما تناقض الحواس فليس يقع بين الاحساسات ، لأن لكل إحساس مجاله الخاص ، وإنما هو يقع بين الأحكام التي تضاف إليها . فأبيقورس يثق بالإحساس ، ويتهم إضافات العقل " (١)

وغاية الحياة هي السعادة " والسعادة هي اللذة الحسية حتما من حيث إنه لا يعترف بغير المادة ومتى تقرر أن اللذة غاية لزم أن الوسيلة إليها فضيلة، وأن العقل والعلم والحكمة تقوم في تدبير الوسائل وتوجيهها إلى الغاية المنشودة، وهي الحياة اللذيذة السعيدة؛ فليس من الحق وصف اللذة بأنها جميلة أو قبيحة شريفة أو خسيسة؛ فإن كل لذة خير، وكل وسيلة إلى اللذة خير كذلك" (٢).

ويخلص أبيقور إلى أن "بداية وأصل كل الخير هو متعة المعدة ،بل

١- المرجع السابق : صـــ ٢١٥ ، ٢١٦ بتصرف يسير وإيجاز

٢- المرجع السابق : صـــ ٢١٩

لابد من إرجاع الحكمة والثقافة إلى هذه "[١]

هذان هما المذهبان اللذان تعتمد عليهما الفلسفة البراجماتية فخلاصة موقفها هو اتخاذ المنافع الأبيقورية غاية يتم تسويغها بوسائل سوفسطائية، وهكذا تمت المزاوجة بين المذهبين القديمين في تطوير جديد تعبر عنه هذه الفلسفة.

فأهم ما يميز المنهج البراجماتي كما سنرى هو نسبية الحقيقة وهي عماد المذهب السوفسطائي، كذلك أن البراجماتية تركز على الفرد ، وتعلي من " الفردية " إلى أقصى حد . وهي بذلك تعكس الفردية الممزقة التي سادت أمريكا في القرن التاسع عشر . وهذه الفردية بما يرتبط بها من فوضى وغموض تجعل الأفراد عاجزين عن تحمل النظام والرقابة والمهام الاجتماعية .

إن هذه الفردية هي التي جعلت أواصر قربى بين البراجماتيين وبين الفيلسوف السوفسطائي " بروتاغوراس " حين قال : " إن

[١]- فلاسفة الإغريق : تأليف : ريكس وورنر ترجمة :عبد الحميد سليم طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م صـ ١٨٩

الإنسان مقياس الأشياء جميعاً " .

وقد لاحظ أفلاطون بحق في محاوراته أننا لو سلمنا بمبدأ بروتاغوراس ، لكان معنى ذلك التسليم بأن حجج المجنون تعادل في صدقها حجج العاقل ، وأن أحط الحيوانات شأنا قد يكون له رأي في الكون لا يقل حصافة عن رأي الإنسان الحكيم !!

وليس هذا هو كل ما يمكننا أن نقوله عن هذه الفكرة الهدامة لكننا سنعرضها في سياقها ، ثم نرد عليها بما يدحضها إن شاء الله .

كذلك ينبغي أن يلاحظ أن مذهب اللذة الذي روّج له الأبيقوريون ، وراج فيما بعد هو مذهب منهار فلسفيا ، ودينيا ، ويكفي أن ننقل تعليق الفيلسوف (جود) على هذا المذهب بقوله: " وإنني أعتقد ، كما يعتقد معظم الفلاسفة أن هذه النظرية تنهار عند النقاط الآتية :

لأنهها لا تدخل في حسابها حقيقة أننا نرغب في بعض الأشياء ، وفي بعض ألوان النشاط لذاتها بدون تفكير فيما إذا كانت تجلب أو لا تجلب السرور .

لأنها لا تدخل في حسابها الأعمال الفطرية ، والتي نقوم بها في

مناسبات عديدة ، وهي أعمال ليس الغرض منها الوصول إلى تحقيق غاية ،حيث أنها بمثابة ثورة للطاقة.

لأنها تقلب الأوضاع إذ توحي لنا خطأ أننا إذ نجد أن بعض الأشياء ، وبعض ألوان النشاط يعقبها مشاعر سارة أننا نهدف إلى تحقيق هذه المشاعر .

لأنها لا تعطينا تفسيرا مقنعا للتضحية بالنفس وحب الغير في حالة الشهيد الذي يذهب إلى الموت راضيا ، والأم الجائعة التي تعطي نصيبها من الطعام لأطفالها"[١].

" ولو سلمنا جدلا مع هؤلاء بإمكان توجيه الحياة النفسية بأسرها نحو البحث عن الملذات لوجدنا حشدا فوضويا من الملذات يترك الإنسان متبددا مهموما ، ويجد الإنسان أنه لا بد من تدخل الفكر لتنظيم تلك اللذات ، بحيث يرجئ الحصول على بعضها من أجل التمتع بغيرها ،ومحاولة إشباع رغبته على أمد طويل من الزمن وهذا ما حاول أن يصنعه فلاسفة المنفعة.

إن من العبث أن يظن البعض أن حياة اللذة هي السعادة بعينها ، فإن حياة اللذة في الحقيقة هي حياة التشتت ، والتفكك والاضطراب ، وانعدام التكامل "[٢]

ثالثا : ما الفلسفة البراجماتية ؟

البراجماتية فلسفة عملية انبثقت من الروح المادية للقرن العشرين ... وهي أمريكية النشأة ، رأسمالية الاتجاه .ولفهم مضمون هذه الفلسفة ، ينبغي أن نعرف أولا أصلها اللغوي ثم ننتقل إلى التعريف بمؤسسها وأشهر أئمتها " تشارلز بيرس " ، ثم بيان تفصيل الفلسفة عن أبرز فلاسفتها وهو " وليم جيمس "

وكلمة البراجماتية في أصلها اللغوي مشتقة من كلمة يونانية تعني العمل النافع ، أو المزاولة المجدية، ويصبح المقصود منها هو " المذهب العملي " أو " المذهب النفعي " .الأصل اللغوي يفيد " ما

[١]- فصول في الفلسفة ومذاهبها : الفيلسوف جود _ ترجمة د/ عطية محمود مهنا ، د/ ماهر كامل طبعة مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ صـ١١٨، ١١٩

[٢]- بين أخلاق القرآن والأخلاق عند الفلاسفة : د/ محيي الدين الصافي طبعة مكتبة الإيمان ١٤٢٤هـ ٢٠٠٢م صـ ٥١، ٥٢

هـو عملي " ومن هنا أطلق عليها اسـم " الفلسفة العملية " ، ولذلك فإنهـا تهـتم بالعمـل على حساب النظر.[١]

ومؤسـسها هو " تشارلز ساندر بيـرس " ١٨٣٩ ـ ١٩١٤ " م " الـذي كـان أول مـن ابتكر كلمة البراجماتية في الفلسفة المعاصرة ، فهو مؤسس هذا المذهب الفلسفي ،وهـو صاحب فكرة وضع(العمل) مـبدأ مطلقًا ؛ في مثل قوله : "إن تـصورنا لموضـوع مـا هو إلا تـصورنا لمـا قـد ينتج عن هذا الموضـوع مـن آثـار عملية لا أكثر "[٢].

ففـي مقال بعنوان " كيف نجعل أفكارنا واضحة " ذكر بيرس أننا لكي ننشئ معنى فكرة فكل ما نحتاج إليه فقـط هـو تحديد أي سلوك تصلح لإنتاجه : إن المسلك بالنسبة لنا هو مغـزاها الوحيد الذي يعول عليه ،

---

[١] - البـراجماتية : ولـيم جيمس ترجمة د/محمـد علي العريان طبعة دار النهضة العـربية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٦٥ صـــ ٦٤

[٢] - البراجماتية : صـــــ ٦٥ مرجع سابق.

وإن الحقـيقة الملموسة البينة التي هـي المنـشأ الأصلي الجذري لكل تفـرقاتنا بـين الأفكار ، مهما كن خفـية ومستورة ، هي أنه لا توجد فكرة واحدة منها على سبيل الحصر تـبلغ حدا من الدقة والرقة بحيث لا تـتألف من شيء سوى فرق ممكن في المزاولة العملية .[٣]

ويتوسـع (بيـرس)فـي دائرة العمـل بحيث يشمل المادي والخلقي أو التـصور ، وتثمـر هذه النظرة للعمل اتساع العالم أمامنا ، إنه عالم مرن ، نستطيع التأثير فيه وتشكيله ، ومـا تـصوراتنا إلا فـروض أو وسائل لهذا التأثير والتشكيل .

وعلـى ذلك فإن (بيرس) يزعم أن كل اصطلاح يكون حقًا إذا كان له مدلـول، والمدلول له وجود حقيقي إذا كـان ينتج بعض النتائج في هذه الدنـيا التي نشاهدها، وإلا فلا معنى للاصـطلاح ولا وجـود للمدلول أو الشيء.

أمـا أشهر فلاسفة البراجماتيزم فإنـه " ولـيم جيمس" (١٨٤٢ - ١٩١٠ م) الـذي يعـرف الحقيقة

---

[٣] - البـراجماتية : صـــــ ٦٥ مرجع سابق.

بأنهـا "مطابقـة الأشياء لمنفعتنا،لا مطابقة الفكر للأشياء ".

وذهـب وليم جيمس [١٨٤٢ ـ ١٩١٠م] إلى أن المنفعة العملية هي المقياس لصحة هذا الشيء.

١ـ البراجماتية والحقيقة :

لـو أردنا توضيح نمطي التفكير الفلـسفي الأساسـيين فـي التاريخ الغربـي فإننا نضع خصائصهما في عمـودين متقابلـين علـى طريقة الفيلـسوف الأمريكي 'وليم جيمس' [مُنظِّـر البـراجماتية الأبـرز] عند تقديمه لأفكاره في كتابه [البراجماتية ـ ١٩٠٧] هكذا:

مثالي	مـادي
عقلي	تجريبي
ديني	لا ديني
أحاديّ	تعددي
يقيني	ارتيابي

ويـرى (جيمس)أنه على الرغم من الخلاف بين المذهبين فإنهما قد اتفقـا علـى أن هناك مرجعًا ما، أو أصـلاً قائمًا يمكن الرجوع إليه في معـرفة مدى صحة فكرة مطروحة، أو رأي أو قول ما؛ هذا الأصل القائم هـو أفكـار قبلـية فـي العقل عند العقليـين، أو واقعـة خارجية تدرك بالحواس عند التجريبيين.

ولأن المنازعات الفكرية بين الفـريقين لا تنتهـي؛ فلقـد ادعى البـراجماتيون أنهم يقدمون طريقة جديـدة فـي التفكيـر لحـسم هذه الخلافات؛ وهي التجريب العملي لأي فكـرة مـن الأفكار؛ فالفكرة تكون صـحيحة أو باطلة بحسب ما يمكن أن تحققه للإنسان من نفع في حياته العملية، لا لأنها صحيحة في ذاتها، أو لأنهـا مطابقـة للواقـع أو غير ذلك.[١]

يقـول الدكـتور / زكـي نجيب محمود في تقديمه لكتاب البراجماتية معـرفا بالبـراجماتية: " من أهم ما يميز الفلسفة البراجماتية تلك اللفتة الجديـدة في معيار الصدق المنطقي لعـبارة مـن العبارات ، فمتى نقول عـن قـول إنه صادق ؟ لقد عرفت الفلسفة قبل ذلك تيارين أساسيين : همـا تيار الفلسفة المثالية ، وتيار الفلـسفة التجـريبية ، وكانـت الفلـسفتان كلتاهما ، ـ وإن اختلفتا علـى مـصدر المعرفة ماذا يكون ؛ فـتقول المثالـية إنـه العقـل دون الحـواس ، وتقول التجريبية بل إنه الحـواس ، ومـا العقل إلا حصيلة

---

[١] - البـراجماتية : صـــــ ٢٥ ، ٢٦

محسوسات خبرناها _ أقول إن هاتين الفلسفتين كلتيهما برغم اختلافهما على مصدر المعرفة ، قد اتفقتا على أن المرجع الذي نرتد إليه في تصديق قول ما أو تكذيبه ، هو هناك قائم ، نعود إليه بالقول المطلوب الحكم عليه بالقبول أو بالرفض ، وما على المراجع المحقق إلا أن يقيس القول إلى ذلك الأصل القائم ليرى إن كان القول أمينا في تصويره أم أنه قد أخل به وانحرف ؟ ،والأصل عند المثاليين فكرة في الرأس ، وهو عند التجريبيين واقعة خارجية تدرك بالحواس ،لكنه عند الجماعتين قائم سابق على القول الذي هو إنما جاء ليحكي عن ذلك الأصل ويصوره.

ثم جاءت اللفتة البراجماتية الجديدة ، التي شدت الأعناق وجذبت الأنظار مما "كان" إلى ما "سوف يكون" شدت الأعناق وجذبت الأنظار من "الماضي" إلى "المستقبل"وذلك بأن جعلت معيار صدق القول هو ما يترتب على ذلك القول من نتائج ، فأعطني من القول ما يهديني سواء السبيل في حياة عامة أو في صناعة وزراعة وتجارة ، أسلم لك من فوري بأنه قول حق ، بغض النظر عما "كان" وما هو "كائن" بالفعل ، فليس "الحق " شيئا قائما هناك ثم يجيء الناس ليشخصوا إليه بأبصارهم وليقولوا فيه ما يقولون ، بل الحق هو طريقة سير نمشي في الحياة على هداها " [١]

فالمذهب البراجماتي يقدم تصورا للحقيقة يوضحه (جيمس) بقوله : "إذا سلمنا بأن فكرة أو معتقدا صحيحا فما هو الفرق الملموس الذي يحدث كونه صحيحا في الحياة الواقعية لأي امرئ ؟ كيف تتحقق الحقيقة ؟ ما هي الخبرات التي ستكون مختلفة عن تلك التي تحدث إذا كان المعتقد زائفا أو باطلا ؟ وبالاختصار ما هي القيمة الفورية للحق إخباريا وتجريبيا وممارسة ؟ وفي اللحظة التي تسأل فيها البراجماتية هذا السؤال فإنها تجد الجواب : الأفكار الصحيحة هي التي يتسنى لنا أن نتمثلها وندفع بمشروعيتها وصدقها وصحتها ، ونعززها ونوثقها ، ونؤيدها ، ونحققها بأن نقيم عليها الدليل . والأفكار الباطلة هي التي لا يتسنى لنا ذلك بالنسبة لها ."[٢]

---

[١] – الكتاب المذكور : صـ٢ ، ٣ بتصرف يسير مرجع سابق

[٢] – البراجماتية : ٢٣٦ ،٢٣٧ مرجع سابق

البراجماتية ترى أن الحقيقة ليست مطابقة تصوراتنا لهذا الجزء أو ذاك ، بل هي بكل بساطة ما يمكن أن يقدمه لنا تصور ما من نفع ، إذا وضعنا نصب أعيننا هذه النتيجة أو تلك ، فالحقيقة تعني قابلية التحقيق ،وقابلية التحقيق تعني إمكانية هدايتنا في أثناء الخبرة ، فالحقيقة نتاج إنساني ، ليس فقط لأن الإنسان هو الذي يصنع العلم ، بل لأن موضوع العلم نفسه وهو الموجود ، وهو ما يبدو أن العلم ليس إلا نتيجة له أو صورة منه ، أبعد الأشياء عن أن يكون مصنوعا منذ الأزل، بل يحدث على الدوام بفعل الكائنات المحسوسة التي هي مادته ، وعلى الخصوص بفعل الإنسان الذي يعتمد على العلم وعلى الاعتقاد .[١]

فالقضية في نظر جيمس لا تكون صحيحة أو حقيقية إلا إذا كان في قبولنا لها ما ينتهي بنا إلى نتائج

---

[١] – العلم والدين في الفلسفة المعاصرة : اميل بوترو _ ترجمة د/ أحمد فؤاد الأهواني طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب صـ٢١٩، ٢٢٠ بتصرف

مرضية ، أعني أن صدق القضية رهن بما يترتب على التسليم بها من إرضاء لحاجات الفرد البشري بسيطة كانت أو معقدة.

وقد لخص (برجسون) وجهة نظر البراجماتية في الحقيقة فقال : بينما ترى المذاهب الأخرى أن أية حقيقة جديدة إن هي إلا اكتشاف ترى الفلسفة العملية أنها اختراع .[٢]

الحقيقة إذن في نظر البراجماتية ليست صفة راكدة أو كاسدة متوقفة عن النماء ، بل هي أقرب ما تكون إلى حدث يعرض للفكرة ، فليست الحقيقة مجرد توافق بين أفكارنا والواقع بل هي لا تكون حقيقة إلا حينما يثبت بالتجربة أنها فكرة صالحة ومفيدة ، إنها تصبح صحيحة أو حقيقية إذا جعلتها الأحداث صحيحة أو حقيقية .

ويضرب (جيمس) مثالا على ذلك بقوله : " إذا قدر لي أن أضل طريقي في الغابة وأتضور جوعا ، ثم وجدت ما يشبه طريقا مطروقا

---

[٢] _ دراسات في الفلسفة المعاصرة : د/ زكريا إبراهيم طبعة مكتبة مصر للطباعة بدون تاريخ صـ ٣٧

للبقر فإنه لأمر بالغ الأهمية إلى الدرجة القصوى أنني يتعين علي أن أعتقد بوجود مقام أو مأوى إنساني في نهايته ، لأنني إذا فعلت ذلك ومضيت في أثره فسأنقذ حياتي .

إن الفكرة الصحيحة نافعة هنا لأن المقام أو المأوى الذي هو هدفها أو موضوعها نافع . ومن ثم فإن القيمة العملية للأفكار الصحيحة تشتق بصفة أولية من الأهمية العملية لموضوعاتها بالنسبة لنا ، وليس ثمة ريب في أن موضوعاتها ليست حقا هاما في كل الأوقات ، فربما في مناسبة أخرى لا تكون بي حاجة إلى المقام أو المأوى ، وعندئذ ففكرتي عنه مهما تكن محققة ستكون من الناحية العملية فكرة منفصمة ، وغير مرتبطة ، وأولى بها أن تظل كمينة "[1]

وخلاصة المسألة أن البراجماتية ترى أن الحقيقة قانونها هو النفع أو النجاح ، فإذا كان الفلاسفة الإسلاميون يرون أن الحقيقة هي صورة مطابقة للواقع ، وإذا كان كانت يرى أن الحقيقة هي قانون في داخل أفكارنا ولا تعرف إلا بتلازمها المنطقي استنادا إلى قوانين العقل ، فإن البراجماتية ترى أن الحقيقة نجاح .

٢- البراجماتية منهج وليست مذهبا :

وقد قال جميس : إن الفلسفة البراجماتية منهج وليست مذهباً فلسفياً، وهو اتجاه إلى توضيح الأفكار، وإعطاء دلالات صادقة لتصوراتنا وقضايانا. لذلك وضع جميس قاعدتين لمنهجه هما: إذا كان لديك قضيتان واعتقدت بصدقهما معاً فأنظر إلى أثر كل منهما على سلوكك العملي. وإذا لم يوجد خلاف عملي بينهما بمعنى لم يوجد خلاف في السلوك، نتيجة اعتقاد الفرد بكل منهما فتأكد أنهما قضية واحدة بصورتين لفظيتين مختلفتين.إذا لم يوجد أي اثر عملي في سلوكك نتيجة اعتقادك بصدق قضية ما، يختلف عن سلوكك نتيجة اعتقادك بكذبها، فأعتبر أن هذه القضية لا معنى لها بل لا وجود لها، إذ أن دلالة الفكرة فيما ينتج عنها من أثر في السلوك.

ف"البراجماتية" ليس لها أي عقائد يقينية أو جزمية أو أية

[1] - البراجماتية : صـ ٢٣٩، ٢٤٠ مرجع سابق .

مذاهب أو مبادئ، اللهم إلا طريقتها؛ فنحن علينا أن نضع كل المفاهيم المطروحة على بساط البحث على المحك البراجماتي، وسنفوز عند ذلك بالنجاة من الجدل الباطل العقيم، فإذا لم يكن ثمة فرق عملي بين قولين بالقياس إلى صحة هذا أو ذاك؛ إذن فالاثنان حقاً عبارة واحدة في شكلين كلاميين، وإذا لم يكن ثم فرق عملي يحدث سواء كانت عبارة معينة صحيحة أو باطلة؛ إذن فالعبارة ليس لها معنى حقيقي، وفي كلتا الحالتين فليس هناك شيء يستحق أن نتنازع من أجله،وأولى بنا أن نوفر جهدنا،ونمضي إلى أمور أكثر جدوى وأهمية.

... إننا نجد أن المنهج البراجماتي في نفس الوقت لا يقدم نتائج معينة، إنه منهج فحسب ... "ليست له عقائد يقينية أو جزمية ،أو أية مذاهب أو مبادئ ،اللهم سوى طريقتها ومنهاجها .... فالمنهج البراجماتي يقف وسط نظرياتنا كالرواق أو الدهليز في فندق ، فهو يفضي إلى عدد لا حصر له من الغرف ويفتح عليها ، ففي أحدها قد تجد رجلا يكتب سفرا في علم الجمال ،وفي الغرفة المجاورة لها قد تجد شخصا ساجدا يدعو الله أن يهبه الإيمان والقوة ، وفي الثالثة كيمويا يبحث في خصائص أحد الأجسام، و في غرفة رابعة تجد نظاما من الميتافيزيقيات المثالية في طور المخاض والابتداع ، وفي غرفة خامسة من يثبت استحالة الميتافيزيقا.

ولكن الرواق أو الممر أو الدهليز ملكهم جميعا ، ومن المحتم على كل منهم أن يجوس خلاله إذا أراد طريقا عمليا للدخول إلى غرفته أو الخروج منها كل على حدة .

وإذن ؟ فلا نتائج معينة بالذات ،وإنما فقط،اتجاه من التصرف ،سبيل من التوجيه هو ما تعنيه الطريقة البراجماتية .

إنه اتجاه تحويل النظر بعيدا عن الأشياء الأولية ، المبادئ ، النواميس ، الفئات ، الحتميات المسلم بها ، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة الثمرات ، النتائج ، الآثار ، الوقائع ، الحقائق"([1]).

و"البراجماتية" لا تمثل ولا تناصر أي نتائج معينة من طريقتها، كما أن

[1] - البراجماتية : صـ ٧٥ ، ٧٦ مرجع سابق

حيازة الحقيقة عندها بعيدة كل البعد عن أن تكون غاية في ذاتها؛ فهي لا تزيد عن كونها مجرد وسيلة أو أداة أولية لبلوغ الإشباع والرضا والسرور، والحق يفضل على الباطل عندما يرتبط كلاهما بالموقف ــ أي البحث عن أيهما أنفع ــ أما إذا لم يرتبط بذلك فإن الحق يتساوى مع الباطل؛ ولأن الحقيقة ترتبط بالنتائج البراجماتية فهي نفسها في حالة تغير وتبدل وانتقال.

ولابد لنا الآن أن نتساءل إنه حتى لو كانت المنفعة هي الهدف الوحيد فكيف يمكننا بغير الحق أن ندرك ما هي هذه المنفعة، ولكن جيمس يقلب الأمور رأسًا على عقب؛ فهو لا يبحث عن الحق كهدف أو غاية؛ لأن غاية جيمس هي التوافق مع الحالة الشعورية القائمة بالفعل، وهذا هو النفع المطلوب براجماتيًا، وكل ما يؤدي إلى هذا التوافق وهذا النفع يكون حقًا. وما دامت الحالات الشعورية في تبدل مستمر، وما دامت المنافع تتبدل وتتغير بتغير الظروف والأحوال؛ فلابد أن يكون الحق في حالة تغير وتبدل وانتقال كما يقول، فالحق ليس قائدًا يقود وإنما هو تابع يتبع.

إن خلاصة الموقف في هذه الفلسفة هو اتخاذ المنافع الأبيقورية غاية يتم تسويغها بوسائل سوفسطائية .

ووليم جيمس يعي جيدًا مدى ضعف نظريته منطقيًا، وأنه لا يقدم أي مفهوم حقيقي للحق أو حتى راجح الصحة، وهو كذلك لا يطالبنا بأن نعتقد ذلك.

إنما هو يقول لنا: إنه ما دامت كل الوسائل المعرفية التي لديكم تم هدمها ــ وهذا الكلام موجه إلى الفكر الغربي تحديدًا ــ فينبغي لكم أن تأخذوا كلامي ولو على سبيل الظن، أو الفرض، أو حتى الاحتمال؛ فالأنماط المتعددة من التفكير كما يقول جيمس: 'كلها متعارضة، وليس فيها واحد على سبيل الحصر يستطيع أن يقيم الحجة على دعوى الصحة المطلقة، أفلا ينبغي أن يثير ذلك احتمالاً أو فرضًا أو ظنًا أو حدسًا مناصرًا لوجهة النظر البراجماتية؟ وما دامت هذه الأنماط المتعددة من التفكير غير صحيحة، ولكنها خدمت أغراضًا معينة لكم؛ فلماذا لا يثير ذلك ولو حتى احتمالاً مناصرًا لمقولتنا: إن الحقائق ينبغي

أن تكون هي الوسائل التي نستطيع بها أن نصل إلى ما نريد؟'.

أي أن الرجل يبدأ بموقف عبثي من الكون، ثم ينتهي بنا إلى موقف عبثي، ثم يقول لنا: إنه ما دام الأمر كذلك فبدلاً من اليأس والمرارة والسأم على كل منا أن ينتفع بما يريح نفسه، ويجد فيه اللذة ولو بشكل مؤقت ومتغير، وعليه لكي يستريح تمامًا أن يعتقد أن ذلك الذي يفعله هو الحقيقة. وبهذا تكون خلاصة المذهب هي: 'البحث عن تسويغ المنافع كما يراها أصحابها في عالم يخلو من الحقيقة، وقد أرهقه البحث عنها'.

ويشاع بين بعض الناس أن 'البراجماتية' تمثل تسويغًا فلسفيًا لمبدأ الغاية تسوغ الوسيلة، وهذا اعتقاد ساذج؛ لأن 'البراجماتية' أبعد شرًا من ذلك؛ فهذا المبدأ يعني أن الوسيلة القذرة قد تسوغها الغاية الشريفة، لكن 'البراجماتية' لا يهمها الغايات الشريفة في شيء وإنما المهم لديها هو أن تكون الوسائل قادرة على تحقيق الغايات، كما أن 'البراجماتية' لا تمارس ذلك على أنه عمل لا أخلاقي أو حتى ميكافيللي تسوغه الضرورة، ولكن على أن

ذلك هو الحق والحقيقة، وما غيره لا شيء البتة، وسندها الوحيد في ذلك هو ما يدرُّه هذا السلوك من نفع على صاحبه.

وتلون هذه الفلسفة نظرة أتباعها إلى العالم . فإن العالم الذي نعيش فيه ليس نظرية من النظريات،بل هو شئ كائن ، وهو في الحق مجموعة من أشياء كثيرة ، وليس من شئ يقال له الحق دون سواه ! . إن الذي ندعوه بالحق إنما هو فرض عملي ــ أي أداة مؤقتة نستطيع بها أن نحيل قطعه من الخامات الأولية إلى قطعة من النظام.ويلزم من هذا التعريف للعالم ، أنه خاضع للتحولات والتغيرات الدائمة ولا يستقر على حال " فما كان حقاً بالأمس ــ أي ما كان أداة صالحة أمس ــ قد لا يكون اليوم حقاً ــ ذلك بأن الحقائق القديمة ، كالأسلحة القديمة ــ تتعرض للصدأ وتغدو عديمة النفع ".

إن المنهج البراجماتي من شأنه أن يضع حداً لتلك المناقشات الميتافيزيقية التي لا سبيل إلى الفصل فيها بأية طريقة أخرى. هل العالم واحد أم متعدد ؟ أهو مخير أم مسير ؟ مادي أم روحاني ؟ كل هذه

المسائل الميتافيزيقية هي مما يصعب الفصل فيها عن طريق النظر العقلي وحده، فلنعد إلى التجربة لكي نتحقق من النتائج العملية التي تترتب على القول بهذا المذهب أو ذلك.

٣-البراجماتية تجريبية متطرفة :

وقد عبر جميس بقوله عن الاتجاه البراجماتي:(يمثل المنهج البراجماتي اتجاهاً مألوفاً تماما في الفلسفة ألا وهو الاتجاه التجريبي ،ولكنها تمثله،كما يخيل إلى،في شكل أكثر تطرفا،وأقل ممانعة فيه واعتراضا عليه في نفس الوقت،مما سبق لها أن أخذته على عاتقها حتى الآن.

إن البراجماتي يولي ظهره بكل عزم وتصميم _ وإلى غير رجعة _ لعدد كبير من العادات الراسخة المتأصلة العزيزة على الفلاسفة المحترفين . إنه ينأى بعيدا عن التجريد، وعن عدم الكفاية ، ويعرض عن الحلول الكلامية ، وعن التعليلات القبلية الرديئة (السابقة على التجربة) وعن المبادئ الثابتة، وعن ضروب المطلق والأصول المزعومة".[1]

---

[1]- البراجماتية : صـــــ ٧٠، ٧١ مرجع سابق .

٤- البراجماتية بين الوحدة والتعدد :

لقد أنكر جميس الواحدية المطلقة، كما أنكر التعددية المطلقة ؛ إن التجربة هي السبب الذي دعاه لهذا الإنكار. أن التجربة لم تنحرف بعد إلى أي الطرفين، ولم تصل بعد إلى نتيجة حاسمة تنظم إلى أي من المذهبين، لكن أدلة تجريبية للوحدة وفي نفس الوقت نجد أدلة تجريبية للتعدد. وكما يرى اعتماداً على هذا الأساس التجريبي (أن العالم واحد حيث نجرب ارتباط الأجزاء بعضها إلى جانب البعض، والعالم متعدد حيث نجد عدم الارتباط. ليس العالم واحداً وحدة مطلقة وليس متعددا حين لا نجد هذه الروابط المحددة). ويقول جميس أيضاً (إن تفسيرنا مذهب التعدد تفسيراً براجماتياً. وهو المذهب القائل بأن الوجود كثرة فأن المقصود به أن الأجزاء المختلفة في الوجود قد ترتبط فيما بينها ارتباطاً خارجياً. أن كل شئ يمكنك التفكير فيه، مجالاً خارجياً أصيلاً من نوع ما أو كم ما من زاوية التعدد، إذ ترتبط بعض الأشياء ببعضها الآخر برباط المعية وبطرق عديدة، لكن ليس هنالك من شئ يتضمن كل

الأشياء أو يشملها ويستوعبها جميعاً، أن كلمة (الإضافة) تلحق كل عبارة وتطاردها، وقد تختفي بعض الأشياء دائماً... ولذلك يكون العالم التعددي أكثر شبهاً بالجمهورية الاتحادية منه بإمبراطورية أو مملكة. ومهما التفت أشياء عديدة بعضها ببعض، ومهما قيل أن شيئاً ما حاضر في أي موقف من مواقف الشعور أو السلوك له أثره وأهميته فأنه لا تزال هنالك أشياء أخرى مستقلة، وأشياء أخرى غائبة ولا يمكن ردها إلى الوحدة... إن كل ما نبغي قبوله في تركيب الوجود، ما نجده بأنفسنا متحققاً تجريبياً في كل جزء صغير من أجزاء الحياة المتناهية. وباختصار لا شئ في الواقع بسيط البساطة المطلقة، بل يرتبط كل جزء من أجزاء التجربة، ارتباطاً تعددياً، ويمكننا اعتبار كل علاقة على إنها مظهر أو سمة أو وظيفة أو سبيل نتناول به أي شئ.

أما مذهب الواحدية فانه على العكس من ذلك فهو يجر كل شئ سواء تحققنا من وجوده أم لم نتحقق لأن كل الكون في ثناياه، ولا يترك شيئاً مطلقاً. فإذا كان هناك شئ غير مرتبط بآخر مرة فلن يرتبط به أبداً كما نرى الواحدية..... ولن يبلغ الخلاف الذي أحاول أن أصفه أكثر من خلاف بين ما سميته بصورة (الوجود كأشياء) وصور (الوجود ككل). يرى مذهب التعدد أن الأشياء في حقيقة الأمر إنما توجد في صور الأجزاء أي توجد موزعة منفصلة متباعدة، بينما ترى الواحدية أن الصورة الوحيدة المعقولة صورة الكل، صورة الكل على أنه وحدة مجتمعة، ولا تسمح هذه الصورة الكلية بالتقاط علاقة أو إسقاط أخرى، لأن الأجزاء في الكل يتضمن بعضهما بعضاً على نحو أساسي خالد. أما في الصورة الجزئية للوجود فقد يكون الشيء مرتبطاً بشيء آخر، من خلال أشياء متوسطة، وليس ذلك أساسياً أو مباشراً ومن ثم يكون بين أجزاء الوجود علاقات ممكنة علاقات وعديدة في كل وقت لم تتحقق في اللحظة الراهنة بالضرورة. أن تلك العلاقات تتوقف على الطريق الفعلي الذي تتبعه الوقائع الرابطة والذي توجهه فيه وظيفةً: أن لكلمة (أو) وجوداً أصيلاً).

٥ ـ الدين البراجماتي وإرادة الاعتقاد

يذهب [وليم جيمس] إلى أن هناك أفكارًا ليس في استطاعتنا أن نحكم عليها بأنها صحيحة أو كاذبة؛ لأن المعرفة العلمية الصحيحة مستحيلة تمامًا في دائرتها؛ فماذا يكون موقفنا إذن من هذه الأفكار؟ هل ينبغي علينا أن نتوقف عن الحكم عليها، أم يحسن بنا أن نفترض عدة فروض من أجل تفسيرها؟

لقد فكر [وليم جيمس] كما جاء في كتابه "البراجماتية" ما يلي: "الواقع أننا لا نستطيع أن نحيا أو نفكر دون قدر من الإيمان أو الاعتقاد"، وليس الاعتقاد ـ من وجهة نظره ـ إلا فرضًا ناجحًا؛ فلماذا لا نلتجئ إلى إرادة الاعتقاد؛ حيث يعسر الوصول بداهة على حقيقة يقينية؟ ألا يحدث أن يكون الاعتقاد نفسه عاملاً فعالاً من عوامل تحقق ما نؤمن به أو ما نعتقده؟

إننا بدلاً من أن نتساءل عما يسيِّر الأشياء: هل هي المادة أو الله؟ يجب أن يكون تساؤلنا هو التالي: ما هو الفرق العملي الذي يمكن أن يحدث الآن إذا قدر للعالم أن تسير دفته بواسطة المادة أو بواسطة الله؟

بالنسبة لماضي العالم فليس ثمة فرق سواء اعتبرناه من عمل المادة أم حسبنا أن روحًا قدسًا هو خالقه ومنشؤه. أما بالنسبة للمستقبل فإن المادة لا تبشر بشيء من النجاح الذي نسعى إليه، بل تبشر بالتحطيم النهائي المطلق للكون وتحوله إلى مأساة في نهاية المطاف؛ لذلك يجب أن يكون اعتراضنا الحقيقي على المادة ـ في زعمه ـ هو قنوط نتائجها العملية.

هذا في حين أن فكرة الله مهما تكن أقل وضوحًا من تلك الأفكار الحسابية التي أصبحت سارية رائجة في الفلسفة الميكانيكية، فإن لها على الأقل الميزة العملية المتفوقة عليها من حيث نتائجها العملية التي تمنح الأمل في المستقبل.

والمنافع التي يريدها [جيمس] من الدين هي: الراحة والهدوء، والسكينة والطمأنينة، والسلام والاغتباط والمشاعر المتدفقة التي تلهب الصدور، وتبعث الحركة في الحياة ولكن دون أية التزامات.

أي أن جيمس يريد من الدين أن يكون مجرد مسكن أو مخدر يستطيع

الإنسان باعتياده إياه أن يواصل حياته بقوة وحماس أكبر؛ ولهذا فإنه لم يهتم كثيرًا بالتفرقة بين كون الخالق هو الله ـ جل شأنه ـ أو المادة، أو البحث عن كون الله موجودًا أو غير موجود، أو على فرض وجوده هو واحد أو ثلاثة، أو أكثر بل على كل إنسان أن يحدد صفات الإله الذي من الممكن أن يفيده الاعتقاد به. أي أنه لا يؤمن بإله خالق، بل هو يخلق من عند نفسه إلهًا محدد الصفات يعمل على خدمة وإرضاء من يؤمن به، وذلك على أساس قوله: "في مقدورنا أن نتمتع بإلهنا إذا كان لدينا إله!!!".

لقد استعاض [جيمس] بالاعتقاد في إله من خلقه عن الله نفسه، واعتقد أن ذلك سيحقق له المنافع التي يبغيها؛ فهل من الممكن أن يتحقق شيء من ذلك.

إن هذه المنافع وغيرها لا يمكن أن تتحقق إلا بشرط واحد هو أن يكون الإنسان مقتنعًا بوجود الله بالفعل، أما إذا لم يكن مقتنعًا بذلك فإنه من المستحيل أن يجد هذا العون من إله هو الذي خلقه، أو حتى اعتقد في وجوده من أجل إيجاد هذا العون؛ لأن ذلك أشبه ما يكون

برجل يدرب نفسه على الاعتقاد بأنه غني، ثم يحاول أن يستمد من هذا الغنى الوهمي المال الذي يبتغيه.

الدين:

يرى "جميس" أن الأديان تتجلى في مظهرين: أحدهما ظاهري والآخر باطني، فالدين نافع وهو في بعض الأحوال مما لا يمكن استبدال غيره. فماذا يجب أن نطلب أكثر من ذلك لنقول أنه حق ؟ فإذا كانت الحقيقة هي في نهاية الأمر ما هو موجود وما يبقى وما يولد، فالدين حق، كما أن الاعتقاد في وجود الكائنات وفي القوى الطبيعية حق.

وبما إن مصير الإنسان مرتبط بوضوح بمصائر غيره من الكائنات فالمتدين في حاجة لكسب الثقة في الأشياء والسلامة الباطنة التي تصبو إليها نفسه إلى الاعتقاد بأن الله نفسه الذي يتصل به يمسك العالم كله ويحكمه، بحيث لا يكون ربه فقط بل رب الكون. يقول وليم جميس (أن العالم غير المتطور ليس مثالياً خالصاً، لأنه يحدث في عالمنا آثار، فمن الطبيعي إذن أن نتصوره على أنه حقيقة توازي ما تسميه الأديان الله. ومن الحق كذلك

أن نعتقد إننا نتشارك الأمر وأننا حين نعيش بتأثيره فأننا نحقق أسمى مصير لنا).

ويقول جميس في العاطفة الدينية (نوجه اهتمامنا إلى العاطفة الدينية التي نرى إن كتباً كثيرة تشير إليها كما لو كان لها وجود من نوع خاص في الذهن. إننا نجد المؤلفين في سيكولوجية الدين وفلسفته، يحاولون تحديد هذا الوجود على نحو دقيق. يوّحد أحدهم بين العاطفة الدينية ووجدان الاتكال، ويرى آخر إنها مشتقة من الخوف، ويربط آخرون بينها والحياة الجنسية، ولا يزال يرى فريق منهم إنها الوجدان باللانهائي، وهكذا أن مثل هذه الطرق المختلفة لتصور تلك العاطفة ينبغي أن تثير الشك في مجرد إمكان قيام هذا الوجود الخاص، وحين نريد فهم كلمة العاطفة الدينية على إنها (أسم مجموع) لعدد من العواطف التي قد تثيرها موضوعات دينية تتعاقب عليها، نرى حينئذ أن من المحتمل إلا تنطوي العاطفة الدينية على شئ أبداً ذو طبيعة نفسية معينة. هنالك الخوف الديني، والحب الديني، والرهبة الدينية، والبهجة الدينية، وغير ذلك. لكن الحب الديني ليس إلا انفعال الحب الطبيعي متجهاً من إنسان لموضوع معين، وما الرهبة الدينية إلا تلك الرجفة العضوية التي نحس بها في غابة في عتمة الليل، أو في منحدر الجبل، وتسيطر علينا حينئذ فكرة العلاقة الخارقة للطبيعة، ويقال مثل ذلك على كل العواطف المختلفة التي قد تلعب دورها في حياة رجال الدين. إن الانفعالات الدينية أمور نفسية لها وجودها، وتتميز عن بقية الانفعالات المحسوسة الأخرى. وهي جميعاً حالات محسوسة للعقل قائمة على الوجدان، يضاف إليه موضوع معين ولكن لا أساس لافتراض وجود انفعال بسيط مجرد كوجدان عقلي أولي متميز بذاته، قائم في كل خبرة دينية بلا استثناء. وكما يبدو انه ليس هنالك انفعال ديني أولي، وإنما خزين عام من الانفعالات قد تستدعيها موضوعات دينية، لأننا لا نتصور إمكان إثبات وجود سلوك ديني أولي معين).

ويمكن في النهاية تلخيص مقولات هذه الفلسفة إلى مقولتين أساسيتين :

الأولي : ازدراء الفكر أو النظر. والثانية : إنكار الحقائق والقيم.

رابعا : أئمة البراجماتية :

أئمة البراجماتية ورجالاتها الأشهر ثلاثة بيرس ، وديوي ، وجيمس

١_ تشارلز ساندرس بيرس : (١٨٣٩-١٩١٤) ، وهو الذي أسس البراجماتية ، وأدخل أصلها ، وكان أبوه بنجامين بيرس من أشهر علماء الرياضيات في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان هو أيضاً من أبرز علماء الرياضيات. كما هو أحد مؤسسي منطق العلاقات الرمزي الحديث.

لقد عرف كلمة البراجماتية من دراسته للفيلسوف كانت، ففي كتاب (ميتافيزيقا الأخلاق). ميّز كانت بين ما هو براجماتي وما هو عملي. فالعملي يشتمل على القوانين الأخلاقية التي يعتبرها كانت أولية (قبلية) بينما البراجماتي يشمل قواعد الفن وأسلوب التناول الذي يعتمدان على الخبرة ويطبقان في مجال الخبرة. لقد كان بيرس تجريبياً مشبعاً بعقلية المعمل، من خلال قوله: (إننا لو استطعنا أن

ننشأ مجتمعاً معملياً، أي مجتمعاً يتم التفاهم فيه على النحو الذي يتم التعامل عليه بين العلماء في المعمل، لانتهينا إلى معنى الحق بدون منازعه أو خلاف).

لهذا رفض تسمية مذهبه بالمذهب العلمي، وكان رجل منطق فأهتم بفن التفكير الحقيقي وطرائقه، وخاصة بالطريقة البراجماتية في فن المدركات العقلية، أو ابتكار تعريفاً وافية وفعالة طبقاً لروح الطريقة العلمية. ويقول بيرس أيضاً: (أن كثيراً من الناس كانوا يعتزّون بأفكار غامضة، ويجعلونها بمثابة هوايتهم الوحيدة، وهي في حقيقتها أفكار خالية من المعنى، لدرجة أنها يستحيل-حتى أن تكون كاذبة. فكل منهم كان يحبها حباً جماً، ويجعلها رفيقته ليلاً ونهاراً، ويعطيها كل قوته وحياته؛ وباختصار، فهو كان يعيش معها، ومن أجلها حتى أصبحت جزءاً من كيانه، وإذا به يجدها ذات صباح مشرق قد ذهبت، أو اختفت تماماً، فتذوي حياته معها أو بذهابها. وهكذا قد يتعصب الناس لمعتقداتهم، ويصعب عليهم أن يتخلوا عنها حتى لو اكتشفوا أنها لم تكن صحيحة، أو حين تصبح موضع

شكهم. ويضيف: أن المرء يبدأ دائماً بأفكار مسبقة أو مسلّمات، ومهمة العقل هي أن يقوم بتصفية ونقد وبلورة المعتقدات التي يبدأ بها المرء. ولما لم يكن من الممكن أن يكون المرء مخطئا في جميع معتقداته، فليس هناك اعتقاد يمكن إلا يكون زائفاً. وما ينطبق على موقف الإنسان الشخصي، ينطبق أيضاً على البحث العلمي).

٢ـ جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٠)

:وقد حدد ديوي كيف نفكر ولماذا نفكر ؟ وانتهي إلي القول بأن الإنسان يبدأ يفكر ابتغاء أن يعيش ويبقى على قيد الحياة ويحسّن أحواله المعيشية. ويقول أيضا إن التفكير يتبع الكفاح، والفعل يتبع التفكير). ذلك إن الإنسان لا يفكر إلا إذا كانت لديه مشكلة يحاول التغلب عليها. ولو لم تكن عنده مشاكل، لكانت حياته عارية عن التفكير.

وعلى هذا الأساس يلاحظ :

١- إن التفكير لا يبدأ إلا حيث توجد مشكلة أو شك، ويراد حلها. فالتفكير ليس مجرد عملية احتراق تلقائي، لأنه لا يوجد إلا حيث تكون هناك حاجة ومناسبة تدعو إليه.

ومقياس نجاحه هو في قدرته في التغلب على المشكلة.

٢- إن التفكير ليس أمراً عشوائياً وبلا هدف. فالتأمل لا ينمو فقط من مجرد الحاجة أو الأشكال، بل يميل دائماً إلى الحاجة والأشكال. (والحاجة إلى حل مشكلة هي العامل المرشد دائماً في عملية التفكير). والمسألة التي تتطلب حلاً والغموض الذي ينشد إيضاحاً، هذا ما يقود الفكر في سبيل محدد. وما يساعدنا على التركيز في التفكير ليس هو الهدوء والسكون، بل التحرك نحو هدف. وتركيز العقل على موضوع يشبه التحكم في السفينة كي تتخذ طريقاً معينة: إن ذلك يقتضي تغييراً مستمراً للوضع مع وحدة التوجيه. لأن طبيعة المشكلة هي التي تحدد غاية التفكير، والغاية تضبط علمية التفكير.

٣ـ والوظيفة الأولى للتفكير هي حل المشكلة التي نواجهها، وإيضاح الغموض والتشويش والإجابة عن السؤال الملح في ذهننا. ونحن نتوقف عن التفكير إذا ما حلت هذه المشكلة ولن نفكر بعد أو نستأنف التفكير إلا إذا عرضت مشكلة جديدة

أو ظهر موقف محير جديد. ومهمة التفكير التأملي هي إذن أن يحول الموقف إلى موقف واضح، محكم ومنسجم ومستقر).

فإن الأفكار هي أدوات تنجز بواسطتها بعض النتائج المرغوب فيها. إنها تساعدنا على أن نعمل شيئاً، أقرب إلى النجاح أفضل مما لو كنا نعتمد على الغريزة أو الاندفاع العاطفي وحدهما. (إن الأفكار لا تكون أفكارا حقيقية إلا إذا كانت أدوات نستعين بها في حل المشكلات. والفكرة ليست إدراكاً شاحباً لشيء ما، وليست مركباً من عدد من الاحساسات. إن الرجل المتوحش قد يكون قادراً على تكوين صورة عن الأعمدة والأسلاك، ولكن إذا لم يعرف شيئاً عن التلغراف أو الكهرباء، فلنتكون لديه فكرة أو تصور أو على الأقل فكرة تصور بسيط، عن الأعمدة والأسلاك. ذلك لأن الفكرة لا يمكن عقلياً أن تتفق بتركيبها وإنما تتفق فقط بوظيفتها وفائدتها.في المواقف المحيرة أو غير المحددة ما يساعدنا على تكوين الحكم هو الاستنتاج بواسطة إيجاد حل ممكن. إنها فكرة بفضل ما تفعله من إيضاح مشكل أو التنسيق بين

ما هو متناثر شذرات، لا بفضل تركيب طبيعي).

٣ـ وليم جميس :ولد وليم جميس في ١١ كانون الثاني عام ١٨٤٢ بنيويورك، وكان أكبر أخوته الخمسة، وهو من أسرة عريقة في الثقافة والعلم، لقد كان أبوه هنري جميس مفكراً أصيلاً وتتلمذ على يد سويدنبرج وفوريي، ر وقد كان لأبيه أثر كبير في تربيته وتميزه الفكري، وكان متديناً ومن أتباع كالفن. وكان ميسور الحال، لذلك شغل وقته بالمطالعة والبحث والرحلات. لقد استطاع وليم جميس منذ صغره أن يزور الكثير من بلدان أوربا، وكما زار الكثير من معاهد إنكلترا وفرنسا وألمانيا وسويسرا. وقد بدأ جميس حياته الجامعية في هارفارد فأهتم بدراسة الطب، ثم أنصرف عنه إلى دراسة الفيزياء، ولم يلبث أن اشتغل بدراسة علم النفس والفلسفة، تحت تأثير بعض مفكري جامعة هارفارد. وكان اهتمامه بعلم النفس الفيزيائي خاصةً، فكان له الفضل في تأسيس أول معمل سيكولوجي في أمريكا. ثم درس علم النفس العام. وقد اشتهر وليم جميس بعد أن نشر كتابه الضخم في ١٨٩٧، عن (مبادئ علم

النفس) في جزأين، بعدما تناول في كتابه نظريات سيكولوجية هامة، وقد قاده علم النفس إلى الفلسفة، فقام بدراسة الكثير من المشاكل الميتافيزيقية والدينية، وصدر له عدت كتب منها (المشاكل الفلسفية)،(البراجماتية)،(إرادة الاعتقاد). وقد بقيَ جميس ثلاثة عشر سنة مدرساً في جامعة هارفارد. وقد ذاعت شهرته في أمريكا وأوربا، ووجدت لها مؤيدين ومعارضين في موطنها الأصلي.

<u>نقد البرجماتية من وجهة النظر الفلسفية :</u>

<u>١ـ نقد فكرة نسبية الحقيقة :</u>

بغير الاعتقاد في ثبات المبادئ ، فإننا لسنا أمام فلسفة جديدة وإن بدت كذلك ، ولكنها مجرد إعادة للنظرية الرواقية القديمة " مضافاً إليها الروح النضالية الحديثة " فإن الخير الحقيقي عند الرواقي القديم في حكمة الاختيار وحدها وليس في الشيء المختار الذي يصطفيه " مثله كمثل ضارب القوس يهدف إلى عين الثور فغايته ليست في إصابة الهدف نفسه ، بل إظهار مهارته في إصابته" !!

إن تعليق الحكمة هنا في مظهرها العملي ـ أي على النجاح في ذاته بصرف النظر عن إصابة الهدف ـ تجعل من المجتمع غابة من الوحوش الضارية يأكل بعضها بعضاً إذ تتنافس على " التفوق " و " الغلبة " ولا تتفق إرادتها على تحقيق أي قيمة من القيم الفاضلة : كالحق والعدل والإيثار وغيرها من الفضائل الإنسانية الثابتة في ذاتها .

فهل نحن مرة أخرى أمام دليل جديد يثبت أن الفلسفة الغربية تعيش على تراثها القديم ؟!

ثالثا : يرى وليم جيمس أن " الحق " إنما هو فرض عملي ، أي مجرد أداة يختبر بها " تصوره " السابق ، ويرى أن الحقائق تنقسم إلى قديمة وجديدة !!

والصواب الذي يتفق عليه أغلب الفلاسفة : أن الحق يستمد قيمته المطلقة من قيمته الثابتة خارج مقولتي (الزمان) و (المكان) .

ونراه أيضًا يخلط خلطاً معيباً بين المبادئ والأهداف حيث يصبها في قالب "المنفعة" ، بينما التفكير السليم يقتضي العكس ، أي الإيمان بالفكرة والعقيدة أولاً عن اقتناع وتثبت بقيمتها الذاتية، ثم السعي بمقتضاها

مهما قابلنا في طريقنا من صعوبات ، فضلاً عن افتقاد " المنافع " وهذا هو منهج الأنبياء والرسل عليهم السلام .

يقول الدكتور توفيق الطويل في تقييم هذه الفلسفة " ويكفي أن تعتبر البراجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة في الأسواق ، قيمتها لا تقوم في ذاتها بل في الثمن الذي يدفع فيها فعلاً ، فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها ! ولم يجد أصحاب البراجماتية غضاضة في النظر إلى الحق أو الخير كما ينظرون إلى السلعة التي تطرح في الأسواق ، هذه هي العقلية الأمريكية في الفلسفة وفي الأخلاق وفي السياسة وفي كل مجال "

<u>وفي بساطة نتساءل ما المقصود بأن الحقيقة نسبية</u> ؟ إذا كان المقصود أن معرفة الإنسان قاصرة وعمله قليل، وأنى له بالعقل الذي يدرك الأشياء إدراكاً شاملاً، فهذا ليس موضع اختلاف، والبشرية بما فيها من عجز وقصور مؤهلة لإدراك قدر من المعارف تكفيها لأداء مهامها في هذا الفترة القصيرة من عمرها على الأرض.

وإذا كان المقصود أن الإنسان لا يصل إلى حقيقة، وكل ما عنده من حقائق لا يمكن القطع والجزم بها، ولا يمكن الاتفاق حولها، فأول ما يواجه هذا القول من نقد أن يُسأل ما الدليل على أن هذا القول صادق؟ فإذا قُدمت الأدلة على صدقه وأثبتت أنه حقيقة، فهو اعتراف بأن لدينا على الأقل حقيقة نطمئن إليها، وهو اعتراف ينقض ما قُدمت الأدلة لإثباته، وإذا كان القول بأن الحقيقة نسبية أمر نسبي أيضاً ولا يمكن القطع والجزم به ، فكيف يؤخذ به؟ ثم كيف يفسر من يقول إن الحقيقة نسبية ذلك القدر المشترك من الحقائق بين أفراد النوع البشري على اختلاف بيئاتهم وظروفهم وعصورهم؟!

الأهم من ذلك أن يُسأل : هل هناك منهج صحيح للوصول إلى حقائق الدين، أم أن الدين كما هي النظرة الغربية له، لا معايير ولا مقاييس لتحديد حقائقه، بل هو مثل مسائل الآداب والفن <u>مسألة "ذوق"</u>، لا تقوم على منهج علمي محدد، أو معايير منضبطة ؟.

إن مصادر حقائق الدين ثلاثة أشياء: النصوص الموحاة، ومعاني

هـذه النصوص، والاستنباط منها، ولكـل واحد من هذه الأقسام منهج علمـي محدد مضبوط، فهناك منهج علمـي لتوثـيق النصوص، ومنهج لطـريقة فهمهـا، ومنهج للاستنباط مـنها، وما يتوصل إليه عن طريق هذه المناهج حقائق لا شك في ذلك.

قـد يحـدث تغيير أو تـبديل للنـصوص، أو قـد يحدث خطأً في الفهم، أو يحدث خطأ في الاستنباط، ولكـن هذه مسألة أخرى ومعالجتها تكـون بإثبات ما حدث من تحريف بالدلـيل والبـرهان، أمـا إطـلاق العموميات والقول بأن حقائق الدين مسألة نسبية يدركها كلٌ على حسب المعـرفة المتاحة، ويراد من وراء ذلـك رفض فكر العصور الماضية ! فقول لا تسنده حجة ولا يمكن قبوله.

يقـول الأسـتاذ غـازي التوبة: (نسبية الحقيقة إحدى الركائز التي تقـوم علـيها الـثقافة الغربية منذ نهـضة أوروبـا الحديـثة، ويربط المفكرون الغربيون بين تلك الركيزة وتغيـر الظـروف الاقتـصادية والاجتماعـية والـسياسية المحيطة بالمجـتمع، ويعـتقدون أن تغيـر الحقائـق الحياتـية يقتضي نسبية الحقيقة، غير أن تكوّن تلك الركيزة في الـثقافة الغربية يعود إلى فترة أبعـد مـن العصور الحديثة ويرتبط بالعصور الوسطى.

فمـن المعروف أن الكنيسة كانت تنطلق آنذاك في حكمها لأوروبا من نـص "الإنجـيل المقدس" الذي كان ثابـتاً والـذي كانت تحتكر الكنيسة تفسيره، وعندما قامت حقائق علمية وكونية متعددة تناقض النص الثابت، وتـناقض تفـسير رجال الكنيسة له وقـع التـصادم المريع بين الدين(المحـرف) والعلم، وكانت النتيجة اضـطهاد رجال العلم بحجة مخالفة النص المقدس الثابت، ولكن الكنيسة انهـزمت أمـام الثورة عليها وأمام حقائق العلم، واعتبرت الثورة رجال الدين عقبة في طريق العلم والتقدم، وصـار الـربط مـنذئذ بين النص المقـدس وثبات الحقيقة، وكذا بين العلم ونسبية الحقيقة.

ومـنذ أن بـدأ الـتفاعل بـين الثقافتـين: الغربية والإسلامية، كان أبـرز صـور التـصادم بين نسبية الحقـيقة فـي الثقافة الغربية وبين الـنص "القطعـي الثـبوت القطعي الدلالـة" في الثقافة الإسلامية .[1]

[1] مجلة المجتمع : العدد ١٣٣٧

وتعتبـر الفلسفة النسبية هي السند الفكـري الأخيـر والمرجع النهائي، لكـل التيارات المناوئة لمبدأ "الثبات الإسـلامي" فـي العقيدة والشريعة والأخـلاق والـنظم، سـواء كانت وضـعية منطقية، أو ماركسية، أو وجودية أو براجماتية.

فالنسبية فلسفة تزعم أن الحقائق العلمـية، والقيم الخلقية، والمبادئ التـشريعية، والـنظم الاجتماعـية والسياسية، كلها تتبدل وتتغير بتغير الـزمان والمكـان ، فمـا كان حقاً بالأمس لابد أن ينقلب باطلاً اليوم أو غداً، وما كان عدلاً لدى اليونان قبل قـرون من الزمان يستحيل أن يظل كذلك إلى اليوم، لا فرق في ذلك بين قانون وضعي وشريعة دينية ، وبهذا التـصور الـشامل للفلسفة النسبية يتـرر أنـصار الـتجديد أن الشعر المقفـى، واللغة الفصحى، والعمارة الإسـلامية، والـشريعة الإسلامية، والعقـيدة الإسلامية إلخ إلخ، كانت صـالحة لعـصر النبوة والراشدين، ولكنها لا يمكن أن تصلح لنا اليوم، ولا مفـر أمامنا من أحد أمرين: إما نقـل نظائـرها الأوروبية العصرية، وإما التخلف عن العصر والفناء تبعاً لذلك![1]

لقـد ولـدت النـسبية في حجر السوفـسطائيين، الذين صاغوها في العبارة المشهورة "الإنسان معيار كل شـيء" بمعنـى أنه هو الذي يحدد الحقائـق العلمية، والقيم الخلقية ، وبوسـعه أن يعدلها، أو يلغيها، أو يستبدل بها غيرها، وقد تصدى لهم سـقراط،مدافعاً عن موضوعية الحقيقة والقـيمة واسـتقلالهما عـن إرادة الإنسان وشهواته.

وماتـت النسبية دهراً طويلاً، ثم بعـثت من جديد وشاعت في الفكر الفلسفي الأوروبي الحديث....

فأول من قال بـ(نسبية الحقيقة) هـم السوفسطائيون – كما سبق _ وعلـى رأسـهم كبيرهم الفيلسوف بـروتاغوراس – الذين ظهروا في الـيونان مـا بـين القرنين الرابع والخـامس قبل الميلاد ؛ حيث كانت اليونان تموج بمجموعة من الأفكار والمـذاهب المتبايـنة المتـنوعة ؛ فلجـأوا لهـذا القول في تأييد الآراء المتناقـضة؛إما شـكاً فـي الجميع،أو للتخلص من جهد طلب الحقيقة.

يقول الدكتور علي سامي النشار: نـسبية كـل شـيء قـال بهـا

[1]- أسـاطير المعاصرين : د/ أحمد عبد الرحمن صـ ١٦٩، ١٧٠

بـروتاغوراس السوفسطائي حين أراد أن يـنقد أصـول المعرفة "إن الإنـسان هو مقياس وجود ما يوجد منها ومقياس وجود ما لا يوجد" ثم أخذ بهذا الشكاك بعد، فطبقوها على الحـد كما طبقوها على نواحي العلم كله، فلم تعد حقيقة من حقائق العلم ثابتة أو مستقرة، بل كل شيء -كما يقـول هـرقليطس-فـي تغيـر مستمر).[١]

- (لقد عبر بروتاغوراس زعيم السوفسطائيين عن فكرهم في كتابه "عـن الحقيقة" الذي فقد ولم تصلنا مـنه إلا شذرات قليلة يبدأها بقوله "إن الإنسان معيار أو مقياس الأشياء جمـيعاً" وفـي هذه العبارة القصيرة تكمن الثورة الفكرية للسوفسطائيين في مختلف ميادين الفكر. إنها تعني بالنسبة لنظرية المعرفة أن الإنسان الفرد هو مقياس أو معيار الوجود، فـإن قال عن شيء إنه موجود فهو موجـود بالنـسبة له، وإن قال عن شـيء إنـه غير موجودٍ فهو غير موجـود بالنسبة له أيضاً، فالمعرفة هـنا نسبية، أي تختلف من شخص إلـى آخـر بحسب ما يقع في خبرة الإنـسان الفـرد الحسية، فما أراه بحواسـي فقـط يكون هو الموجود بالنسبة لي، وما تراه أنت بحواسك

[١]- مـناهج البحث عند مفكري الإسلام : د/ علـي سامي النشار صـــــــــ ١٩١

يكـون هـو الموجـود بالنسبة لك، وهكذا).[٢].

فتعالـيمهم - كمـا يقول مؤلفا " قـصة الفلسفة اليونانية - (تعاليم هدامة لكل نظام اجتماعي ؛ للدين ، للأخلاق ، لكل نظم الدولة).[٣]

وفـي العـصر الحـديث :تلقف أصحاب المذهب " البراجماتي " هذه الفلـسفة ؛ لأنهـا تناسـب مذهبهم النفعي المصلحي المتلون:

(ليس من شك لدى أحد الآن أن بـروتاجوراس هـو الجـد الأول

[٢]-مـدخل لقـراءة الفكـر الفلسفي عند الـيونان : د/ مصطفى النشار صـــ ٧٠، ٧١

[٣]-أنظر صـــ ٦٩ من الكتاب المذكور ، وللـزيادة عـن السوفـسطائيين أنظر الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها :د/ أميرة مطر صـــ١١٥ وما بعدها ، ، و " تاريخ الفلسفة اليونانية " لماجد فخري ، و " التعريفات " للجرجاني ، و " قصة الإيمان " لنديم الجسر(ص ٣٦-٣٧) ، و " فلسفة الأخـلاق " للدكـتور توفيق الطويل (ص ٤٧-٤٩) ، و " مختصر تاريخ الفلسفة " للمختار بنعبد لاوي (ص ١٣-١٤) ، و " الموسـوعة الفلسفية " للدكتور عبدالمنعم الحفنـي (٤٨٢ ومابعدها) ، و " المعجم الفلسفي " للدكتور مراد وهبة (ص ٤٤٤ ومـا بعـدها) ، و" ربيع الفكر اليوناني" لبدوي (١٦٥-١٨٠) ، و" قصة الفلسفة اليونانية " (ص ٦٢-٧٢).

للبـراجماتيين المعاصـرين؛ سواء علـى المـستوى الفلسفي، أو على المـستوى الحياتي؛ إذ لا يمكن فهم أقـوال هؤلاء البراجماتيين معزولة عن آراء جدهم الأكبر ، فحينما يقول ولـيم جمـيس: "إن الحقيقـي ليس سـوى النافع الموافق المطلوب في سبيل تفكيرنا تماماً، كما أن الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب في سبيل مسلكنا" و"أن المطلق ليس صـحيحاً على أي نحو" . فهل يمكن أن نـشك لحظـة فـي أنه وأقرانه يمـثلون بـروتاغوراس العـصر الحالـي؟! لقد كان شيللر -وهو أحد كـبار الفلاسفة البراجماتيين- على حـق حيـنما كـتب كتاب " why protagoras not plato معلـناً أن بروتاغوراس هو جدهم الأول)[١].

البـراجماتية (تعـيد إلى ذاكرة الـتاريخ نـسبية السوفسطائية التي تزعم أن الفرد مقياس كل شيء).[٢]

والغريب أن كثيرا ممن يسمون أنفـسهم بالعـصريين أو العقلانيين

[١]- فلاسـفة أيقظوا العالم : د/ مصطفى النشار صـــ٧٧

[٢]- أعـلام الفلـسفة الحديثة : د/ رفقي زاهر صـــ١٧١

يتبـنون هـذا المـذهب الهدام ونـورد هنا على سبيل المثال بعضا من هذه المقولات :

_ فهذا مثلا على حرب يقول : " لا أحـد يملـك الحقـيقة الملكية المطلقة " .[٣].

وهذا محمد جابر الأنصاري يقول :" يجب أن يكون واضحاً في غاية الوضـوح: أن المطلق مطلق، ولكن الفهم البشري والتفسير البشري لأي جانـب من جوانب المطلق هو فهم نسبي" (٤)

وهـذا طـيب تيزيني يقول : " ينبني الدين على حقيقة مطلقة كلية هي الوحي ولما كانت الفلسفة تضع فـي اعتـبارها تعدديـة المواقـف والآراء، ونسبية الحقيقة -أي كونها مـوزعة من حيث الاحتمال المفتوح بـين الـناس جميعاً- فإن التصادم بينهما قائم لا محالة " (٥) .

[٣]_ الممـنوع والممتنع: علي حرب، ص ١٨٠، وانظـر أيضاً: كتابه: نقد الحقيقة، ص ٢

[٤]- تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها : د/ محمد جابر الأنصاري صـــ٨٣

[٥]- آفاق فلسفية عربية معاصرة : طيب تيزيني صـــ١٦٧

ويقول أيضا : " ما بعد الحداثة هو عالم صيرورة كاملة، كل الأمور فيه متغيرة، ولذا لا يمكن أن يوجد فيه هدف أو غاية ، وقد حلت ما بعد الحداثة مشكلة غياب الهدف والغاية والمعنى بقبول التبعثر باعتباره أمراً نهائياً طبيعياً، وتعبيراً عن التعددية والنسبية والانفتاح، وقبلت التغير الكامل والدائم).[١]

وهذا تركي الحمد يقول : " لن تكون متقدماً أو صاحب أمل في التقدم؛ إذا قبلت الرأي على أنه حقيقة، والحقيقة على أنها مطلقة وليست نسبية " .[٢]

وهذا مراد وهبة يدعو في كتابه [ملاك الحقيقة المطلقة] إلى التسامح مؤكدا مع "جون ستيوارت مل أن التسامح يمتنع معه الاعتقاد في حقيقة مطلقة". " العلمانية من حيث هي التفكير في النسبي بما هو نسبي، وليس بما هو مطلق".[٣]

وهذا محمد أركون يرى أن (كل مجتمع لا يعترف بالتعددية العقائدية والسياسية هو مجتمع تنقصه الأنسنة إلى حد كبير . لماذا ؟ لأن الاختلاف والتنوع في الرأي والفكر شرط من شروط تحرر الذهن من التحجر والانغلاق) .[٤]

وهذا محمد عابد الجابري يقول : (إن اعتماد الشك في التفكير الفلسفي ، والأخذ بنسبية الحقيقة : هو التسامح بعينه)[٥]

لقد عرف علماء الإسلام خطورة هذه الفكرة السفسطائية التي تخلط الحق بالباطل ، وتُشكك المسلمين في دينهم ، وتساوي بينه وبين الديانات المحرفة والباطلة بدعوى التماس الحقيقة!، لاسيما وهناك من المنحرفين من يُغذي هذه الفكرة وينشرها .

لقد قسم علماء الإسلام السوفسطائيين ثلاثة أقسام : العندية ، والعنادية ، واللاأدرية : فالعندية ترى أن حقائق الأشياء

١- المرجع السابق : صـــــ ٣٢٢

٢- من هنا يبدأ التغيير : تركي الحمد صـــــ ٣٤٧

٣- ملاك الحقيقة المطلقة : مراد وهبة صـ١٩٣، ٢٢٨

٤- معارك من أجل الأنسنة : محمد أركون صـ ١٦

٥- قضايا الفكر المعاصر : محمد عابد الجابري صـ ٢٠

تابعة لعقائد المؤمنين بها ؛ لأنهم أقيسة الحقائق ، تسمى العندية نسبة إلى لفظ "عند" ؛ لأنهم يقولون أحكام الأشياء تابعة لاعتقادات الناس ، فكل من اعتقد شيئاً فهو في الحقيقة كما هو عنده وفي اعتقاده ، والعنادية تجزم بأن لا حقائق في الكون ؛ لا في ذاتها ولا بالقياس إلى المؤمنين بها ، وتسمي العنادية نسبة إلى العناد؛ لأنهم عاندوا فقالوا لا موجود أصلاً وعمدتهم ضرب المذاهب بعضها ببعض والقدح في كل مذهب بالإشكالات المتجهة عليه من غير أهله.. وأما اللاأدرية فهي التي تتوقف عن الحكم في كل شيء ؛ فهي لا تجزم بوجود ولا بعدم ، سموا بذلك لأنهم يقولون لا نعرف ثبوت شيء من الموجودات ولا انتفاءه بل نحن متوقفون في ذلك .

وقد رد عليهم جميعًا ابن حزم في كتابه " الفصل في الملل والأهواء والنحل " [١] ؛ ويهمنا رده على فرقة " العندية " التي يُقلدها دعاة النسبية . قال رحمه الله : (ويقال – وبالله التوفيق– لمن قال هي حق عند من هي عنده حق، وهي باطل عند من

١- الجزء الأول : صـــــ ٤٤، ٤٥

هي عنده باطل : إن الشيء لا يكون باعتقاد من اعتقد أنه حق، كما أنه لا يبطل باعتقاد من اعتقد أنه باطل ، وإنما يكون الشيء حقاً بكونه موجوداً ثابتاً، سواء اعتُقد أنه حق أو اعتُقد أنه باطل. ولو كان غير هذا لكان معدوماً موجوداً في حال واحد في ذاته، وهذا عين المحال.

وإذا أقروا بأن الأشياء حق عند من هي عنده حق، فمن جملة تلك الأشياء التي تُعتقد أنها حق عند من يعتقد أن الأشياء حق بطلانُ قول من قال إن الحقائق باطلة ، وهم قد أقروا أن الأشياء حق عند من هي عنده حق. وبطلان قولهم من جملة تلك الأشياء، فقد أقروا بأن بطلان قولهم حق !! مع أن هذه الأقوال لا سبيل إلى أن يعتقدها ذو عقل ألبتة، إذ حسُّه يشهد بخلافها. وإنما يمكن أن يلجأ إليها بعض المُتَنَطِّعين على سبيل الشغب. وبالله تعالى التوفيق) .

ورد عليهم – أيضًا – ابن الجوزي في " تلبيس إبليس " [٢] ؛ قائلا : (قال النوبختي : قد زعمت فرقة من

٢- صـــــ ٤١

ويقول أيضا : " ما بعد الحداثة هو عالم صيرورة كاملة، كل الأمور فيه متغيرة، ولذا لا يمكن أن يوجد فيه هدف أو غاية ، وقد حلت ما بعد الحداثة مشكلة غياب الهدف والغاية والمعنى بقبول التبعثر باعتباره أمراً نهائياً طبيعياً، وتعبيراً عن التعددية والنسبية والانفتاح، وقبلت التغير الكامل والدائم).[١]

وهذا تركي الحمد يقول : " لن تكون متقدماً أو صاحب أمل في التقدم؛ إذا قبلت الرأي على أنه حقيقة، والحقيقة على أنها مطلقة وليست نسبية " .[٢]

وهذا مراد وهبة يدعو في كتابه [ملاك الحقيقة المطلقة] إلى التسامح مؤكدا مع "جون ستيوارت مل أن التسامح يمتنع معه الاعتقاد في حقيقة مطلقة". " العلمانية من حيث هي التفكير في النسبي بما هو نسبي، وليس بما هو مطلق".[٣]

وهذا محمد أركون يرى أن (كل مجتمع لا يعترف بالتعددية العقائدية والسياسية هو مجتمع تنقصه الأنسنة إلى حد كبير . لماذا ؟ لأن الاختلاف والتنوع في الرأي والفكر شرط من شروط تحرر الذهن من التحجر والانغلاق) .[٤]

وهذا محمد عابد الجابري يقول : (إن اعتماد الشك في التفكير الفلسفي ، والأخذ بنسبية الحقيقة : هو التسامح بعينه)[٥]

لقد عرف علماء الإسلام خطورة هذه الفكرة السفسطائية التي تخلط الحق بالباطل ، وتُشكك المسلمين في دينهم ، وتساوي بينه وبين الديانات المحرفة والباطلة بدعوى التماس الحقيقة!، لاسيما وهناك من المنحرفين من يُغذي هذه الفكرة وينشرها .

لقد قسم علماء الإسلام السوفسطائيين ثلاثة أقسام : العندية ، والعنادية ، واللاأدرية : فالعندية ترى أن حقائق الأشياء

---

[١] - المرجع السابق : صـــــ ٣٢٢

[٢] - من هنا يبدأ التغيير : تركي الحمد صـــــ ٣٤٧

[٣] - ملاك الحقيقة المطلقة : مراد وهبة صـ١٩٣، ٢٢٨

[٤] - معارك من أجل الأنسنة : محمد أركون صـ ١٦

[٥] - قضايا الفكر المعاصر : محمد عابد الجابري صـ ٢٠

تابعة لعقائد المؤمنين بها ؛ لأنهم أقيسة الحقائق ، تسمى العندية نسبة إلى لفظ "عند" ؛ لأنهم يقولون أحكام الأشياء تابعة لاعتقادات الناس ، فكل من اعتقد شيئاً فهو في الحقيقة كما هو عنده وفي اعتقاده ، والعنادية تجزم بأن لا حقائق في الكون ؛ لا في ذاتها ولا بالقياس إلى المؤمنين بها ، وتسمي العنادية نسبة إلى العناد؛ لأنهم عاندوا فقالوا لا موجود أصلاً وعمدتهم ضرب المذاهب بعضها ببعض والقدح في كل مذهب بالإشكالات المتجهة عليه من غير أهله.. وأما اللاأدرية فهي التي تتوقف عن الحكم في كل شيء ؛ فهي لا تجزم بوجود ولا بعدم ، سموا بذلك لأنهم يقولون لا نعرف ثبوت شيء من الموجودات ولا انتفاءه بل نحن متوقفون في ذلك .

وقد رد عليهم جميعًا ابن حزم في كتابه " الفصل في الملل والأهواء والنحل " [١] ؛ ويهمنا رده على فرقة " العندية " التي يُقلدها دعاة النسبية . قال رحمه الله : (ويقال – وبالله التوفيق– لمن قال هي حق عند من هي عنده حق، وهي باطل عند من

---

[١] - الجزء الأول : صـــ ٤٤، ٤٥

هي عنده باطل : إن الشيء لا يكون باعتقاد من اعتقد أنه حق، كما أنه لا يبطل باعتقاد من اعتقد أنه باطل ، وإنما يكون الشيء حقاً بكونه موجوداً ثابتاً، سواء اعتُقد أنه حق أو اعتُقد أنه باطل. ولو كان غير هذا لكان معدوماً موجوداً في حال واحد في ذاته، وهذا عين المحال.

وإذا أقروا بأن الأشياء حق عند من هي عنده حق، فمن جملة تلك الأشياء التي تُعتقد أنها حق عند من يعتقد أن الأشياء حق بطلانُ قول من قال إن الحقائق باطلة ، وهم قد أقروا أن الأشياء حق عند من هي عنده حق. وبطلان قولهم من جملة تلك الأشياء، فقد أقروا بأن بطلان قولهم حق !! مع أن هذه الأقوال لا سبيل إلى أن يعتقدها ذو عقل ألبتة، إذ حسُّه يشهد بخلافها. وإنما يمكن أن يلجأ إليها بعض المُتَنَطِّعين على سبيل الشغب. وبالله تعالى التوفيق)

.

ورد عليهم – أيضًا – ابن الجوزي في " تلبيس إبليس " [٢] ؛ قائلا : (قال النوبختي : قد زعمت فرقة من

---

[٢] - صـــــ ٤١

المتجاهلين أنه ليس للأشياء حقيقة واحدة في نفسها، بل حقيقتها عند كل قوم على حسب ما يعتقد فيها، فإن العسل يجده صاحب المرة الصفراء مراً، ويجده غيره حلواً. قالوا وكذلك العالم هو قديم عند من اعتقد قدمه، محدث عند من اعتقد حدوثه، واللون جسم عند من اعتقده جسماً، وعرض عند من اعتقده عرضاً. وهؤلاء من جنس السوفسطائية ؛ فيقال لهم : أقولكم صحيح؟ فسيقولون : هو صحيح عندنا، باطل عند خصمنا. قلنا : دعواكم صحة قولكم مردودة ، وإقراركم بأن مذهبكم عند خصمكم باطل شاهد عليكم ! ومن شهد على قوله بالبطلان من وجه فقد كفى خصمه بتبيين فساد مذهبه) .

٢ _ البراجماتية ملهمة للنظام الرأسمالي ونضيف إلى ذلك أن هذه الفلسفة كانت ملهمة للنظام الرأسمالي القائم على مبدأ المنافسة الحرة . ثم ظهرت مساوئه عند التطبيق واستفحلت أخطاره التي تتضح في ما يلي :

١ - اللاأخلاقية: بالرغم من التقيد ببعض الفضائل كالأمانة والانضباط والدقة ومراعاة المواعيد ولكنها _ كفضائل _ ليست مقصودة لذاتها ، ولكنها تفيد الرأسمالي في تعامله مع الغير ، وتظهر " اللاأخلاقية " بوضوح في أساليب الدعاية والإعلام.

٢ - الارتباط الوثيق بالحروب والاستعمار ذلك أن الرأسمالية بدافع البحث عن المواد الأولية ، وبدافع البحث عن أسواق جديدة لتسويق المنتجات تدخل في غمار الحروب ، واستعمار الشعوب .

٣ - الانحرافات السلوكية : وأظهرها الإجرام ، إذ إن فتح الباب على مصراعيه للمنافسة والصراعات من شأنه تمجيد العنف ، ويتضح الانحراف بصورة أخرى في شرب المسكرات والمخدرات وعقارات الهلوسة وغيرها " وتفسيرها أنها ظاهرة هروبية من واقع العنف والمنافسة المريرة التي لا ترحم ".

٤ -الأنانية :حيث يتحكم فرد أو أفراد قلائل في السوق تحقيقاً لمصالحهم الذاتية دون تقدير لحاجة المجتمع ، أو احترام المصلحة العامة .

٥ _ الاحتكار : إذ يقوم الرأسمالي باحتكار البضائع وتخزينها حتى إذا

ما فقدت من الأسواق نزل بها ليبيعها بسعر مضاعف يبتز فيه المستهلكين الضعفاء.

٦ _ تضخيم شأن الملكية الفردية.

٣ _ البراجماتية والدين :

ولم يسلم (الدين) أيضاً من التفسير (النفعي) في ضوء الفلسفة البراجماتية ، " فإن اعتبار شروط وجود الدين وأصوله ونشأته لا أهمية لها عند من يسأل عن قيمة الدين ؛ لأن قيمته فيما ينتجه " .

أ _ الفرق بين نظرته للدين وعقيدتنا الإسلامية :

لم يكن " الدين " عند وليم جيمس كموضوع للبحث في ذاته ، ولكن في آثار الانفعال الديني ، وهل هذه الآثار حسنة تحقق الأمل ؟ وهل يمكن الحصول عليها بطريق آخر خلاف الديني ؟

إنه يرى أن للدين أثراً أخلاقياً ، كما أنه يتفوق على أي مصدر آخر للحث على النشاط والمثابرة وفعاليته تظهر بإيحائه المؤثر في الغالب أكثر من الأساليب المادية ، ويضرب على ذلك مثالاً بالطبيب الذي يعترف بأن شفاء المريض لا يتحقق بالعلاج المادي وحده ، بل بالإيحاء الناجم عن قوة الإيمان .

وهذا الرأي _ كما يقول "٣٦٩ برتراندرسل " _ لا يقنع مؤمناً مخلصاً في إيمانه ، لأن المؤمن لا يطمئن إلا متى استراح إلى موضوع لعبادته وإيمانه ، إن المؤمن لا يقول : إني إذ آمنت بالله سعدت _ ولكنه يقول إني أؤمن بالله ومن أجل هذا فأنا سعيد .... إن الاعتقاد بوجود الله _ تعالى _ في نظر المؤمن الصادق مستقل عما يحتمل أن يترتب على وجوده من نتائج وآثار ".

أما نحن معشر المسلمين فإننا - بحمد الله - نمتلك أعظم ثروة للعقيدة والقيم تضمنها كتاب الله عز وجل ونفذها الرسول صلى الله عليه وسلم ؛حيث حقق في عقيدته وسلوكه وأخلاقياته الأسوة الحسنة _ وجمع بين " الحق " عقيدة وإيماناً ، و " العمل " أخلاقاً وسلوكاً ، وحدد الأهداف ، ووضع المنهج وأحصى القيم ، مبيناً الطريق الذي يجتازه المسلمون من دنياهم إلى أخراهم ، وقد ألف علماؤنا مجلدات في هذه الأغراض كلها.

ب_ بدأ جيمس آراءه الدينية بقوله : إن الذي يكون صميم الدين ليس الطقوس ولا الفرائض ولا

المعتقدات بل يكون صميم الدين العاطفة والشعور الديني ولكن هذا الرأي يحتاج منا إلى وقفة : فالإيمان لا يتوقف فقط على العاطفة ؛ ذلك لأن العاطفة والوجدان من المعروف عنهما أنهما عواطف متقلبة دائماً ، وبالتالي فالإنسان سوف يؤمن في حالة مزاجية عاطفية وجدانية ، ويعود إلى الإلحاد عندما تتغير حالته المزاجية ! وبالطبع فالإيمان ليس كذلك ؛ إنما هو صرح يقوم على أسس عقدية يؤمن الإنسان ويلتزم بها ويسلم بها لأنها تأتيه من الله تعالى لصالحه.

ج ـ يذهب جيمس إلى أن التجربة الدينية تشارك الله تعالى في خلقها ! وهذا ما يتنافى مع الوحدانية التي لله تعالى . فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يولد ولم يكن له كفوا أحد. فلا خالق إلا هو ، سبحانه وتعالى .

د ـ ترى البراجماتية بوجه عام وبراجماتية بيرس وجيمس بوجه خاص أن الاعتقاد لا الإيمان لا ينفصل عن الشك ، ومن ثم فالإيمان على مذهب البراجماتيين لا يفارقه الشك .

هـ ـ من الخطأ في زعم جيمس التمسك الدائم بالمعتقدات ، فالإيمان الراسخ عنده يحجب عن الإنسان المعرفة الصحيحة !! وهذه مقولة يطرب لها الملاحدة والعلمانيون والمنافقون أينما ثقفوا .

و ـ لذلك فإنه يلزم ـ فيما يزعم جيمس ـ اختيار صحة العقائد من وقت لآخر ، واستبعاد ما يتضح للمرء عدم صحته منها أو عدم صلاحيته !!

إن معيار اختيار صحة العقائد عند جيمس ومن حذا حذوه هو إخضاعها لمحك التجربة ، فهي التي تميز الحق من الباطل وليس حكم الله تعالى !

فإذا أردنا أن نطبق المنهج البراجماتي على إحدى العقائد ، كاعتقادنا أن الله تعالى هو الرازق على سبيل المثال ، فلا ينبغي على مذهب جيمس البراجماتي أن نظل متمسكين دائماً بهذه العقيدة ، وإنما يتعين علينا اختبارها تجريبيا ، فإذا تبين لأحدنا أن الله تعالى قدر عليه رزقه ، ولم يعطه ما سأل من رزق في أي صورة من صوره ، فعليه أن يتخلى فوراً عن هذه العقيدة !! لأن التجربة أثبتت عدم جدواها ، وهكذا يكون المؤمن على طريق

البراجماتية إنه كمن يعبد الله على حرف!.

إن المسلم الحق لا يضع عقيدته موضع الشك ، ولا يجعل إيمانه بالله تعالى موضع اختيار ، بل على العكس تماما ، يؤمن بأن الله عز وجل يختبر عباده .

إن تطبيق الفكر البراجماتي على المعتقدات الدينية ، يبدو بالنسبة لنا كارثة ! فإننا لا نسلم بالحقائق الدينية لمجرد أنها نافعة – في نظرنا القاصر – ، بل لأنها حقائق في ذاتها بصرف النظر عن فائدتها ونتائجها العملية الناجحة – بحسب النظرة القاصرة – . لأننا لو سلمنا بهذا المعيار البراجماتي ـ كما فعل جيمس ـ لكانت أية عقيدة ـ مهما تكن أسباب إنكارنا لها ـ حقيقة لمن يرى أنها نافعة له ، فتستوي بذلك النحل والبدع والديانات المحرفة مع الدين الحق (الإسلام) !! لقد تنفس جيمس الصعداء لاستطاعته إزالة العراقيل التي كانت تقف في طريق معتقداته الدينية ، ولكنه كما قال " سنتايانا " بقسوة " لم يكن يؤمن حقيقة ، كان يؤمن بأن من حق الإنسان أن يؤمن بأنه يمكن أن يكون على حق لو آمن " !

إننا لو قلنا لشخص ما " إنني أعتبر عقيدتك خرافة، ولكن إذا كانت مفيدة لك فهي عقيدة حقيقة بالنسبة لك " . أليس في ذلك سخرية به ؟!

٤ـ نقد فكرة المنفعة :

فقد كان " جيمس " والبراجماتيون يفخرون باتساع أفقهم ، ولكن الحق أن هذه الروح الفضفاضة تبلغ حداً يؤدي إلى القضاء على كل معني لكلمة " النافع " عندما كانوا يعرفون الحقيقة عن طريق المنفعة . فالنافع في اللغة المتداولة هو ما يفي بحاجة " حيوية " ؛ إلا أن البراجماتيين قد أضفوا على كلمة الحاجة معان بلغت من الكثرة حداً لم تعد معه تدل على شيئ، حتى ولا كلمه " النافع " ذاتها.

فهناك حاجات ترمي إلى حفظ الحياة والعمل على استمرارها ، ولكن من الممكن أن نطلق اسم " الحاجة " على ما يعبر عن أكثر الميول الوجدانية تنوعاً : فالمرء بحاجة إلى أن يكون محترماً ، محبوباً، كما أنه بحاجة إلى أن يحب ، والى أن يرى من يحبهم سعداء . والغيورون الحاقدون بحاجة إلى أن يروا الآخرين تعساء وأقل سعادة

منهم . والمرء بحاجة إلى الإيمان بوجود الله ، وخلود النفس . كما أن هناك حاجات عاطفية وعقلية كالحاجة إلى المعرفة والفهم ... وهكذا نلاحظ أن " حاجات " الإنسان و " المنافع " التي تناظرها تبلغ من التنوع حدا يجعل كل تعريف للحقيقة بالمنفعة ينتهي آخر الأمر إلى أنه لا يوضح من طبيعتها أي شيئ . و لا شك في أن " الحقيقي " نافع على نحو ما ، إلا أن ذلك لا يستتبع القول بأن المنفعة هي أساس لتعريف الحقيقة . فالحقيقي نافع لأنه " حقيقي " قبل أي اعتبار للمنفعة .وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن المذهب البراجماتي يعرف الحقيقة بأنها ما يفي بالحاجة ، غير أن أول ما نحتاج إليه عندما نبحث عن الحقيقة هو ألا نكون براجماتيين !!

ومعنى ذلك أن القاعدة الأساسية التي نضعها عندما نشغل أنفسنا بالكشف عن الحقيقة هي أن نصرف كل اعتبار للمنفعة ، ولو تطرق الشك إلى نفوسنا وآمنا بشيء لأننا بحاجة إلى هذا الإيمان، لفقد الإيمان إذن كل قيمة له . ومرة أخرى نقول

" إن الحقيقي نافع لأنه حقيقي ، وليس حقيقياً لأنه نافع " .

ولنتصور الحالة العقلية لمريض يقول لطبيبه " لا تقل لي سوى ما أحتاج إلى تصديقه " ، ألا يكون قوله هذا توسلا إليه أن يكذب ؟

وهكذا ينتهي الأمر بالبراجماتية إلى أن تكون نظرية الأكذوبة الحيوية التي تقوم على أساس من نزعة الشك .

إن جيمس ــ ومعه بقية البراجماتيين ــ يلعبون لعبة خاسرة مع الحقيقة . فهو إذ يجعل من الحقيقة: حقنا في الاستمرار في الاعتقاد بما ينفعنا ، إنما يرفض مفهوم الحقيقة بأسره . إن وضع الفكرة ذات النتائج المرضية مكان مفهوم الحقيقة معناه فتح الباب لأي خيال لذيذ . فماذا يمكن أن يرضي الإنسان أكثر من استمراره في الاعتقاد بأنه ذكي بينما هو في الواقع أبله ؟!! ان العالم مليء بالكثير من السخف الذي يستشعر معه الإنسان قسطا من المتعة .

وإذا كان تقديم الأفكار يتم على أساس ما تؤدي إليه من نتائج عملية ، فعند أي حد نستطيع أن

نحكم على فكرة معينة بناء على هذا الأساس ؟ فلو كان هناك شخص يعتقد أن الطريقة لحل مشكلاته الاقتصادية هي السيطرة على أحد البنوك ، لكانت هذه الفكرة صحيحة أحياناً ، لما يترتب عليها من نتائج عملية . إلا أن البراجماتيين يصرون على أن المرء لا بد أن يضع في حسبانه لا مجرد النتائج المباشرة التي تترتب على الفكرة ، بل آثارها البعيدة أيضاً .

وهنا قد نقول إننا لا نستطيع أن نعرف النتائج العملية لهذه الفكرة ، مادامت النتائج البعيدة قد تستمر إلى غير ما حد . فقد تعمل الفكرة بنجاح في وقت معين ، ثم تفشل في وقت آخر ، ثم تعود للنجاح بعد ذلك . ومعنى هذا أننا ينبغي علينا أن ننتظر بلا نهاية لكي نتمكن من تقييم نتائج أي اعتقاد ، ومن تقرير ما إذا كانت له نتائج عملية أم أنه يفتقر إلى مثل هذه النتائج .

٥ـ البراجماتية والعلم

أما تطبيق النظرية البراجماتية عن الحقيقة في مجال العلم ، وما ذهب إليه جيمس والبراجماتيون من أن قضايا العلم قضايا حقيقية لأنها مفيدة عملياً ، فيبدو نسفاً للحقائق العلمية من أساسها !

إن قبول نظرية معينة واعتبارها صحيحة بدون برهان ولمجرد أنها نافعة أو أنها ترضينا من ناحية ما، هو نقيض الموقف العلمي تماما . إن الفرض المرضي فحسب هو في أغلب الأحيان أقرب الفروض إلى الخطأ ، فالبراجماتية لا تقدم لنا بحثاً إيجابيا عن الحقيقة إذ إنها مجرد منهج لاكتشاف الأفكار الخاطئة ، وهي التي ليست لها آثار عملية . وهذا منهج سلبي لا إيجابي ، لأنها لا تهدف إلا إلى استبعاد الأفكار الخاطئة ، تلك التي لا تكون لها هذه الآثار العملية . والاستبعاد ــ كما هو واضح ــ منهج سلبي للكشف عن الحقيقة وليس إيجابيا بحال من الأحوال .

٦ـ البراجماتية والفردية : إن البراجماتية تركز على الفرد ، وتعلي من " الفردية " إلى أقصى حد . وهي بذلك تعكس الفردية الممزقة التي سادت أمريكا في القرن التاسع عشر . وهذه الفردية بما يرتبط بها من فوضى وغموض تجعل الأفراد عاجزين عن تحمل النظام والرقابة والمهام الاجتماعية .

إن هذه الفردية هي التي جعلت أواصر قربى بين البراجماتيين وبين الفيلسوف السوفسطائي " بروتاجوراس " حين قال : " إن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً " . وقد كتب " شيلر " يقول " ينبغي علينا أن نعود مرة أخرى إلى ما فعله بروتاجوراس ، فنتخذ الأحكام الفردية لأشخاص مفردين نقطة بدء لنا " . لكن ليس لنا أن ننسى أن بروتاجوراس هو أحد هؤلاء الذين كانوا يخلطون الحق بالباطل ، لكي يتصيد في الماء العكر ما هو زائف ومريح ، ويشيد صرح الخطابة على أنقاض الفلسفة . لقد لاحظ أفلاطون بحق في " ثيتاتوس " أننا لو سلمنا بمبدأ بروتاجوراس ، لكان معنى ذلك التسليم بأن حجج المجنون تعادل في صدقها حجج العاقل ، وأن أحط الحيوانات شأنا قد يكون له رأي في الكون لا يقل حصافة عن رأي الإنسان الحكيم !!

وبعد ... إن البراجماتية قد تصلح لأولئك الذين يتمتعون بروح عدوانية ، تسعى إلى السيطرة النابليونية . أما بالنسبة لأولئك الذين يتمتعون بالروح الإنسانية ، ويتمسكون بالمثل العليا ، والقيم الدينية ، فإن البراجماتية تبدو لهم ضيقة الأفق ، محدودة الإطار ، مخيبة للآمال) .

٧ ـ البراجماتية فلسفة وقوعية لا واقعية

إن البراغماتية ليست فلسفة خاطئة فقط، بل هي ممارسة وضيعة، تسقط الإنسان في وحل سلوك الحيوانية وما قبلها، فالإنسان لم يصبح إنساناً إلا بفضل تطويره منظومة قيم، وحينما يتخلى عنها يرتد، لكنه بارتداده للحيوانية، وما قبلها، "يفقد الخيط والعصفور"، كما يقول المثل العراقي، أي انه يخرج من "مملكة الإنسان" لكنه لا يدخل "مملكة الحيوان" مجدداً، بل يدخل "مملكة عهر الضمير"، وهي مملكة يأكل فيها المخلوق ذاته كي يعيش، وهي أحط وأقذر ممالك المخلوقات. لذلك فالبراغماتية هي فلسفة وقوعية وليست واقعية.

إن العالم الذي يوصف بأنه عالم متحضر اليوم هو الذي يمسك بزمام العالم على المستوى المادي المشاهد والملموس ، وهو الذي يتحكم بمصير الحياة البشرية كما يبدو ، وكما نلاحظ فإن العولمة التي تُطرح أو تُفرض ما هي إلا نتاج فلسفة نمت وترعرعت في ذلك الوسط من العالم وإذا تأملنا

في تاريخ هذه الفلسفة فإننا سنجد أنها تقوم - في أغلبها- على مبدأ الأخلاق النفعية ، فليس هناك أي قيمة ذاتية للأخلاق وإنما تنبع قيمتها من مدى ما تحققه من أغراض على مستوى المادة أي الحياة المنظورة .

وسنحاول نحن هنا أن نُطل بشكل موجز على تاريخ الأسس الفلسفية للأخلاق في الغرب منذ أقدم عصورها إلى اليوم ، ثم ننظر في الانعكاسات الواقعية التي نتجت عن هذه الفلسفة ، ونبدأ بالسوفسطائيين الذين أقاموا الأخلاق على ثلاثة أسس هي :

- القوة : فالحق هو القوة ، والقانون من اختراع الضعفاء ليخدعوا به الأقوياء.
- اللذة : فالغاية الأساسية للأخلاق هي تحقيق أكبر قدر ممكن من اللذة.
- النسبية : فكل ما تراه أنت حقاً فهو كذلك بالنسبة لك ، وكذلك كل ما أراه أنا فهو كما أراه جاء بعد ذلك أبيقور فلم يكتف بأن اعتبر اللذة هي غاية الأخلاق وإنما اعتبر اللذة هي الخير المطلق.

وأعتقد أن نظرة تأمل في السياسة العالمية اليوم نجد أنها محكومة بهذه الأخلاق السوفسطائية المكيافللية النفعية التي تزيد القوي قوة والضعيف ضعفاً .

هذه الأخلاق الثعلبية المكيافللية اكتملت بعده بقرن من الزمان حين آزرتها ذئبية توماس هوبز ١٥٨٨ - ١٦٧٩ فإذا كان مكيافللي قد اجتر من الفلسفة اليونانية أخلاق القوة السوفسطائية، وأضاف إليها أن القوة تبرر الوسيلة ، فإن توماس هوبز قرر أن يجتر من الفلسفة اليونانية الأخلاق الأبيقورية القائمة على مبدأ اللذة وأضاف إليها الأنانية وتناول ذلك تحت عنوان الذئبية الإنسانية فاعتبر الإنسان ذئباً لأخيه الإنسان فإن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب فالأخلاق يجب أن تقوم على المادة والمنفعة وأخلاق السوق ، وهذا ما تحاول أمريكا اليوم أن تفرضه على العالم .

هذه إذن هي أسس الأخلاق في الفلسفة الغربية على مر التاريخ وهي الأسس التي انتصرت وسادت القوة – اللذة – المنفعة – العنصرية فهل كان لهذه الأسس صدى في الواقع العالمي بالأمس واليوم؟

إن الأخلاق الأبيقورية والمكيافللية والنيتشوية هي التي جعلت بسمارك ونابليون لا يباليان بملايين الجنود الذين يموتون في سبيل تحقيق العظمة وفي سبيل نشوة القوة

والـــشعور بالمجـــد . وإن أخـــلاق المنفعة والقوة والعنصرية هي التي دفعت الاستعمار في القرون الماضية إلـــى بلادنا لنهب خيراتها وثرواتها وجعلته يبنى أمجاده وثراءه ورفاهيته وحـــضارته علـــى حـــساب فقـــرنا وامتـــــصاص دمائـــــنا.

وإن فلسفة القوة والمنفعة والعنصرية هي التي دفعت هتلر إلى إبادة ملايين البشر من اليهود والغجر والمعوقين والمسنين لأنهم عُدُّوا أفواهاً مستهلكة غير منتجة وعُدَّ ذلك إنجازاً عقلانياً لأبـــه حـــرر الـــنازية من أية أعباء أخلاقـــية مثالية وتعاملت مع البشر بكفاءة بالغة وبمادية صارمة كما لو أنهـــم مادة استعمالية نسبية تخضع لقوانين الطبيعة والمادة . وكذلك فعل ستالين حين أباد ملايين من الفلاحين الكـــولاك فـــي إطار دراسة علاقات الإنـــتاج ومعدلات النمو لأن هؤلاء كانوا يعوقون عملية الإنتاج الحتمية.

فهـــــــــــرس

الموضوعات

الموضـــــوع **الصفحـــــة**

المقدمة.....٣٢٩
أولا : البيئة التي نشأت فيها البراجماتية ٣٣٤
ثانيا الجذور الفكرية للبراجماتية.....٣٣٧
ثالثا:ما الفلسفة البراجماتية؟.....٣٤٣
١_ البراجماتية والحقيقة ٣٤٥
٢_ البراجماتية منهج وليست مذهبا.....٣٤٨
٣_البراجماتية تجريبية متطرفة.....٣٥٢
٤_ البراجماتية بين الوحدة والتعدد.....٣٥٢
٥_ الدين البراجماتي وإرادة الاعتقاد ٣٥٤
رابعا : أئمة البراجماتية.....٣٥٧
خامسا : نقد البراجماتية ويشتمل على:
١_ نقد فكرة نسبية الحقيقة ، وبيان خطورتها ٣٦٠
٢_ البراجماتية ملهمة النظام الرأسمالي وهو ملئ بالعيوب ٣٦٨
٣_ البراجماتية والدين.....٣٦٩
٤_ نقد الامتداد غير المشروع لفكرة المنفعة.....٣٧١
٥_ البراجماتية والعلم.....٣٧٣
٦_ البراجماتية والفردية.....٣٧٣
٧_ البراجماتية فلسفة وقوعية لا واقعي.....٣٧٤